من الناحية التانية

هند حنفي

الكتاب : من الناحية التانية (قصص قصيرة)

المؤلف : هند حنفي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣

رقم الإيداع : ١٠٨١٧/ ٢٠١٣

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 157- 4

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٩٠٠٦٥(+٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : مريم سليم



من الناحية التانية

محاولة تسلل مفعمة بالإنسانية لالتقاط صورة من الزاوية المختفية

هند حنفي

إهــداء

إلى أول حب في حياتي ...

أمــى

أحيانًا تغمرنا مصاعب العيش... فنصبح أشبه بأربعة أشخاص محتجزين داخل سيارة مغلقة الأبواب؛ ضبابية النوافذ...
جالسين فيها منذ وقتٍ طويل.. طويل...
حتى نسينا، هل أحكمنا إغلاق نوافذنا هربًا من صهد الحرارة، أم شدة البرد ؟!

مناظر متتابعة تجري أمامنا كأيامنا المتشابهة..
مناظر واحدة من زوايا مختلفة...
تجعل كل منا يشعر أنه يرى ما لا يراه الآخرون..
صمتٌ عشَّش في نفوسنا... وامتلأ بصخب الأفكار المزعجة..
كلٌّ منا توحَّد في كيانه.. انغمس في رأيه ووجهة نظره واتجاهه.

بمرور الوقت.. تزحف ظلمة الوحدة على ما تبقى منا..
شعور إحباط يعلق بقلوبنا أنه ليس هناك من يفهمنا أو يشعر بنا..
ونسينا؛ أو ربما تناسينا..
أن أولئك الجالسين بجانبنا وحولنا احتاجوا ذلك منا... يومًا.

لذلك،أنا تلك المجنونة التي تركت سيارتها على قارعة الطريق..
ووقفت في منتصفه تحمل لافتة كُتب عليها...
(كن أكثر إنسانية...
كن أكثر رحمة وتقديرًا...
أكثر تناغمًا مع نفسك..
أكثر تقبلاً للآخر...)

في محاولة فضولية..

صادقة..

بشغف طفلة تكتشف العالم من جديد...

أن أختلس نظرة..

"من الناحية التانية"

من تلك الناحية التي لا نراها...

من النافذة الأخرى التي لم نجرب شعور من جلس بجانبها...

أن أتسلل خلف كواليس الأحداث..

وأسجل تلك اللحظات التي لم تلتقطها زاوية الكاميرا...

نعم...

ربما لا تكون محاولتي هي الأفضل..

أو الأجمل...

ولكن أعد أني تحريت فيها الصدق والإخلاص والشغف..

أعد...

أنك في خضم ما ستقرأه الآن..

بالتأكيد ستجد..

كلمة... إحساسًا.. أو تعبيرًا..

يلمس وترًا حسَّاسًا في أعماقك..

يترك إحساسًا غامضًا في نفسك..

إننا جميعًا نمرُّ بتلك اللحظة...

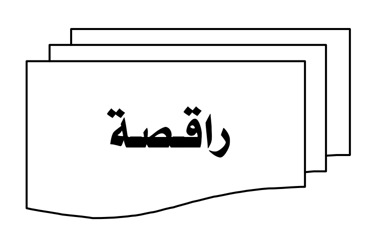
التي نحتاج فيها أن نترك مقاعدنا..

ونتبادل أدوارنا...

نتسلل لأماكن الآخرين...

لنلقي نظرة..

"من الناحية التانية".



حملت الصندوق الصغير وبنفخة خفيفة أطارت ما عليه من أتربة وهي تتأمله مبتسمة...

مرَّت على سطحه بحنان وكأنما افتقدته طيلة سنوات طويلة قبع فيها في قاع دولابها..

بمفتاح صغير فتحت قفله الذي طاله الصدأ، أرجعت غطاءه للوراء ... اتسعت ابتسامتها متأملة أسرارها التي كانت تعدها أسرارًا وأقفلت عليها بمفتاح...

أوتوجراف ممتلئ بتمنيات بريئة كتبت بخط أشبه بـ "نتش الفراخ" من صديقات عمرها..

وريقات من هنا وهناك ؛ قصقصتها من كراساتها .. تحمل ضحكات ورسائل كن يتبادلنها خلسة من وراء المدرسين حين يفرضون حظر تجول ويمنعون الكلام...

ثم في أخر القاع حيث أعمق أسرارها.. ورقة بالية من باكورة مراهقتها رسمت فيها قلوب حمراء كثيرة.. وبخط "منمنم"...

(أعرف أني سأراك يومًا يا حبيبي وستعرفني.. أنا حبيبتك التي انتظرتك كثيرًا .. ويومها سأعطيك قلبي الذي احتفظتُ به لك وحدك).

امضاء في آخر الصفحة..

"فرحة"

ابتسامة مليئة بالكثير من الشجن احتلت شفتيها..

تأملتْ الورقة لحظات ثم نظرت إلى دبلة الزواج المستقرة في إصبعها...

كم من لحظات نضيعها في انتظار ما لا يأتي...

كم من خيبات أمل نتجرعها...

لم يكن زوجها سيئًا.. طيب، هادئ الطباع، محترم..

ولكن..

كان بعيدًا عما وقر في نفسها من تمنيات.. كان في طبعه شيء من البرود والتصرفات التقليدية..

لم يستطع أن يروي احتياجها الجارف للحنان والمشاعر الدافئة وهي صاحبة المشاعر الفياضة..

لم يداعب الطفلة في أعماقها أو يلاطفها...

لم تشعر بتلقائيتها معه.. فهو إنسان تقليدي محافظ يقدس الروتين اليومي..

حاولت أن تعتاد على ذلك ولم تستطع أن تغيره لما فيها من خجل مفرط في نفسها يمنعها من أن تطلب منه أكثر مما يقدمه...
ذكَّرها ذلك بنصيحة صديقة لها من يومين حين أفضت لها ببعض مكنونات صدرها..
ألَّحت عليها أن تتجرأ عن ذلك وألا تترك للخجل مجالاً..
عليها أن تتصرف معه بدلع وشغف الأطفال لكي تحرك تلقائيته..
أن تتحرر من كل القيود وتترك لأنوثتها أن تستدعي حنانه ومشاعره..

تنهدت في حيرة وأغلقت الصندوق وقامت لتعيده مكانه .. فشاغلها في الدولاب إيشارب أحمر جميل تتدلى منه عملات ذهبية كثيرة تصنع أصواتًا عالية..
ابتسمت ابتسامة واسعة حيِيّة وقد واتتها فكرة..
تناولت الإيشارب ثم فتحت باب الحجرة بهدوء ونظرت فوجدت زوجها جالسًا في الصالون يقرأ..
مشت نحوه بخفة، ثم من ورائه طبعت قبلة على خده..
نظر لها بتعجب... فهو لم يعتد منها ذلك !
تجاهلت نظرته كيلا يثنيها خجلها عما تنوي..
أدارت بخفة مفتاح الراديو .. قلَّبتْ قليلاً حتى وجدت أغنية راقصة..

لفت الإيشارب حول وسطها..
ثم قالت..
- أنت لم ترنِ أرقص أبدًا.

بدأت تتمايل مع النغمات وتندمج مع طبلتها الصاخبة وقد شارك الإيشارب برناته في جوها المبهج...
رويدًا.. رويدًا.. صارت حركاتها أكثر انسيابية وجرأة..
وشاركت ابتسامتها الفاتنة في اكتمال رقصتها رقصًا جميلاً متقنًا.

نظرت إليه علَّها تقطف نظرات الإعجاب من عينيه..
فإذا به يحدق فيها بجمود وقد رفع أحد حاجبيه إلى أقصاه..
توقفت عن الرقص متعجبة من ردة فعله...
فقال :
- أين تعلمتِ الرقص هكذا ؟!!
تمتمت في ذهول..
- أنا... لم أتعلم.. !!
قاطعها بصوت خشن صارم النبرة..
- كنتُ أحسبك حيية.. لهذا اخترتك من بين كل من رأيتهن.. ولكن يبدو أن كلكن واحد.
ثم أولاها ظهره وهو يقول...
- لا أريد هذه "المسخرة" مرة أخرى في بيتي.

ظلَّت تحدق في ظهره العريض المنصرف أمامها..

ودون أن تشعر..

حلَّت الإيشارب الأحمر المعقود..

ألقته على الأرض..

وألقت نفسها بجواره..

تلملم بقايا خيبات الأمل.



قبل أن تشرق الشمس بقليل .. في ذلك الوقت الندي المعطر بأنفاس الصباح الأولى ... رنَّ هاتفها المحمول معلنًا الخامسة والنصف صباحًا..

مدَّت يدها بوهن النوم إلى الطاولة الملاصقة لسريرها وأطفأته، ظلت لحظات ساهمة في الفراغ وهي تستعيد نفسها من بين أحضان أحلامها الجميلة ودفئها..

رويدًا رويدًا، بدأت تتأمل الحجرة من بين أهدابها المرخية في نعس... لمحت النتيجة المعلقة على الحائط..

"الثلاثاء"..!

كفَّت عن تأملها وركزت لحظة ثم طافت ابتسامة بشفتيها الرقيقتين.. أشرقت نظرتها بلون الحشائش الصغيرة النائمة في عينيها ببهجة طول الاشتياق..

ستراه اليوم....

أزاحت الغطاء جانبًا رغم برودة الجو، قامت من سريرها بتفاؤل أشاع دفئا في نفسها..

ستراه اليوم لا شك؛ وإن لم يكن بينهما موعد...

لقاء دبَّرته الصدفة وأحكمت هي استمراره بتعمدها المجيء دائمًا في أوقات تواجده...

مشت ببطء لذيذ تجاه الحمام، غسلت وجهها.. مشطت شعرها الكستنائي الناعم.. ثم خرجت واتجهت ناحية كاسيت قديم صغير وفتحته لتتبعث نغمات أغنيتها المفضلة بكلمات "نزار قباني" وصوت "كاظم" العميق...

(... وإني أحبك..

دعيني أصب لكِ الشاي... أنتِ خرافيةُ الحسن هذا الصباح..

دعيني أترجم بعض كلام المقاعد وهي ترحب فيكِ...

دعيني أعبِّر عما يدور ببال الفناجين وهي تفكر في شفتيك..)

ابتسمتْ وأخذتْ تتراقص على نغمات الأغنية وتتخيل لو أنها سمعت منه هذه الكلمات..

تسربت حمرة لطيفة إلى وجنتيها من حلاوة خيالاتها..

ارتدت ملابس بسيطة وإن بدت مع ذلك جميلة من دقة ملامحها الرقيقة وحلاوة نفسها المطلة من ابتسامتها ووهج الحب وتشوقه المختبئين في عينيها..

حملت كتاب صغير في يدها ونزلت إلى الشارع...

مشت قليلاً حتى وصلت إلى كورنيش النيل، كانت الشمس قد سطعت منذ وقت ليس ببعيد وانعكست سلاسلها الذهبية المرسلة على صفحة النيل المنبسط...

كم تحب دفء الشمس في نهار الشتاء..

يخلق إحساسًا في نفسها شبيه بالكتاكيت الصفراء المتكتلة تحت بقعة الشمس لتدفئة زغبها الأصفر الجميل..

ابتسمت ابتسامة واسعة من تشبيهاتها الطفولية...

أحلى ما في هذا الوقت أنها وحدها في الشارع والناس نيام.. فليس هناك من يراقبها ولا من يلتقط ابتساماتها المفاجئة..

بعد قرابة نصف ساعة، وصلت إلى مكانها المنشود...

دكة خشبية صغيرة استظلت بشجرة كبيرة مليئة ببراعم زهور بنفسجية اللون ووردية.. وأمامها سلم يفضي إلى مشتل صغير على ضفاف النيل..

جلست وأخذت تقلّب عينيها في الكتاب وقد تاهت في خضم مشاعرها بين السطور.. إنها لهفة الانتظار وشوق يستعجل قدومه...

حتى رأته قادمًا من بعيد بخطواته الواثقة وصدره المفرود وقامته الممشوقة وشعره المبعثر فوق رأسه في فوضى محببة للنفس

تمنت معها كلما رأته لو مدَّت يدها وعبثت في تلك الخصلات النافرة...

خفق قلبها في قوة مع اقترابه منها حتى يخيل للرائي من بعيد أنه مقبل عليها... ولما صار على بعد خطوة منها انحرف نازلاً السلم إلى المشتل الذي يملكه..

نزل فتنفست هي في تنهيدة قوية كأنما تلملم مشاعرها التي تبعثرت مع خطواته..

تعجبت في نفسها من اختلاجة مشاعرها وهي التي لم تكن تعرف شيئًا عنه...

كانت دائمًا تحب هذا المقعد الخشبي تحت الزهور البنفسجية المتعانقة وتجلس عليه ساعات تقرأ كتابًا أو تتأمل صفحة النيل، حتى رأته يومًا ولم يثر بنفسها أكثر مما يفعله أي عابر طريق..

ثم بدأت تراه باعتياد كل ثلاثاء..

وبدأ الاعتياد يكتسب لذة خفية في انتظاره ومتعة حلوة في الإصغاء إلى كلماته التي تسمعها وهي جالسة أمام المشتل.

عرفت عنه عشقه المجنون بالزهور بكل أشكالها وألوانها .. يتحدث عنها بشغف وحب، يحفظ أسمائها ويعتني بها أيما اعتناء.

ثم علمت أنه مالك المشتل..

صارت مرة بعد مرة تصغي السمع لما يقول.. ضحكت وهي تتذكر أنها حفظت أوامره لعمال المشتل أكثر مما حفظوها هم..

سمعت أحاديثه ومناقشاته مع أصدقائه .. ضحكت على نكاته ومزاحه... استمتعت معه بأغنيته المفضلة...

(دعيني أصب لكِ الشاي..

أنت خرافية الحسن هذا الصباح..)

كانت عيناها على باب المشتل وإن كانت في عالم آخر تمامًا سارحة في تأملاتها... لم تنتبه لوقع خطواته على السلم...

وفي لحظة وجدته فجأة على مقربة منها فاحمَّر وجهها بشدة وشعرت بنفسها تذوب من فرط الخجل الذي ملك عليها نفسها، فخبأت نفسها بين صفحات الكتاب...

ابتسم هو... حين التقط إحدى نظراتها المختلسة وانتبه لما ألمَّ بها وقد زادتها حمرة وجنتيها فتنة وجمالاً..

توقف لحظة ثم عاد ونزل السلم مرة أخرى، وبهدوء ورقة انتقى لها أجمل ورداته وصنع منها باقة خلابة تحير الألباب..

صعد السلم واتجه إليها..

انتبهت لاقترابه وارتبكت...

تسارعت خفقات قلبها الذي أسرع يختبئ خجولاً بين ضلوعها ويصفق في سعادة على استحياء..

شعرت بتوتر في معدتها وكأنما تركتها وهبطت إلى قدميها...
بصوته الجميل ألقى عليها تحية الصباح..
لم ترد، وإن نظرت إليه من خلف الكتاب وكأنها لا تدري أين تختبئ منه.. أو من فوران المشاعر بنفسها..
ابتسم هو ولم يرد أن يطِل عليها لئلا يزيد من خجلها، فقال بابتسامة حلوة :
- هلا تقبلين مني هذه الباقة من الوردات اللاتي أردن أن يستأنسن بك ويزددن جمالاً بنفثات من سحر عينيك وإشراقة ابتسامتك؟
خفضت بصرها إلى الأرض وهي لا تدري بما ترد، فقال بعد تردد :
- أنا أراكِ دائمًا، لا يعقل أن تكوني جارة المشتل ولا تقبلي بعضًا من ورداته.
اتسعت ابتسامتها قليلاً وبيد مرتعشة تناولت منه الباقة... ارتجفت أعصابها حينما مسَّت أناملها أطراف أصابعه...
ابتسم وقال :
- هل لي أن أعرف اسمك حتى ؟
رفعت بصرها إليه وقد تقلصت ابتسامتها وشيء من الشجن أطفأ لمعة السعادة في عينيها، انفرج ثغرها قليلاً ولكن تاهت الكلمات..

اختفت وذابت على شفتيها...

ضاعت في خضم المشاعر التي استولت عليها..

شعر أنه أخطأ على نحو ما وخاف أن يكون ضايقها.. فقال معتذرًا :

- أرجو ألا أكون قد ضايقتك...

ثم أكمل بابتسامة صغيرة :

- لا بأس، سأتركك مع ورداتي وهن سيخبرنك بكل شيء عني.

ابتسمت له فردَّ ابتسامتها بأوسع منها، ثم نزل إلى مشتله...

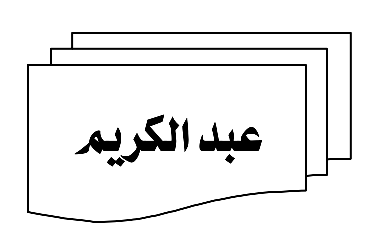
وبمجرد أن نزل اقترب منه العامل العجوز بالمشتل وهمس له..

- لا تتضايق يا بني.. لقد حاولت أن أكلمها مرة وأشارت إلى أنها ... خرساء.

اتسعت عيناه وأسرع يصعد السلم قفزًا، ولكن حين وصل... لم يجد سوى باقة الورد موضوعة على الدكة الخشبية الصغيرة...

نظر إلى الرصيف من طرفيه فلم ير لها أثرًا...

جلس على الدكة في حزن، وتأمل الوردات اللاتي نكسن أوراقهن في ذبول من أثر دمعات تساقطت عليهن في صمت.



عبد الكريم

مشى مطأطأ الرأس، معقود الحاجبين، وسنوات عمره الستون رسمت تجاعيدها الحزينة في ثنايا وجهه...

نظر إلى النيل المتشح بسواد الليل.. لا يكاد يظهر منه شيء .. وكأن ظلمته انتقلت إلى صدره فأطبقت عليه واختنق بها، حاول أن يأخذ نفسًا عميقًا عله يخفف من غلواء الحزن بنفسه، فلم يزدد بعمق تنفسه إلا همًّا على همه وسنوات عمره تمضي أمام عينيه وكأنها كانت لحظة ومضت.....

زوجته ورفيقة دربه رحلت وتركته وحيدًا في الدنيا.؛ بلا يد تحنو عليه أو صدر يضمه ويفضي إليه بما أهمه..

وأولاده.. كلٌّ شق طريقه في الحياة وانشغل بأمره وقلما يتذكرون ذلك الذي كان لهم أبًّا حانيًا، عمل كل ما بوسعه ليسعدهم ويوفر لهم ما يحتاجونه حتى إذا ما أقبلت الدنيا عليهم أداروا ظهورهم إليه..

حتى أصدقائه معظمهم رحلوا...

توقف لحظة عن المشي وكأنما يسأل نفسه..

- وأنت.. ما يبقيك أيها العجوز الشقي؟!

ازدادت تقطيبة جبينه حدة وكأنه يفكر بالفعل في انهاء حياته... لمح بطرف عينه سلمًا يفضي إلى النيل مباشرة، مشى نحوه ونزل السلم وجلس على صخرة تمس أطرافها المياه.

وضع يده على جبينه.. أغلق عينيه.. وكأنما يحاول أن يغمضهما عن سواد الأفكار التي تطوف بخاطره..

فجأة شعر بيد تربت على كتفه، التفت وقد سرت في جسده قشعريرة، فرأى شاب متوسط الطول أقرب إلى النحول غامت الظلمة على معظم ملامحه فلم يتبين منها شيئًا .. وقبل أن ينطق بادره الشاب قائلاً:

- أتسمح لي أن أجلس معك ؟

ظل صامتًا للحظات ثم هزَّ رأسه موافقًا وعاد إلى جلسته الأولى وكأن لم يحدث شيء....

جلس الشاب على صخرة أخرى بجانبه.. ظلا صامتين وكأنهما تمثالين من حجر نحو ساعة، حتى قال الشاب بصوتٍ خفيض:

- أنا لا أقصد تدخلاً في شئونك... ولكن.. يبدو أن بك همًّا شديدًا، لعلك إن تحدثت به ارتحت قليلاً.

ظلَّ الرجل صامتًا لا ينطق، وإن كانت لهجة الشاب الحنونة الخفيضة استثارت مكامن الحزن داخله فاهتاجت وأحسَّ في نفسه رغبةً في الإفضاء بما يثقله وفي الحديث إليه..
أخذ يقلب الأمر في رأسه قليلاً.. ثم بدأ يتحدث ويحكي عما به؛ وعجبًا يسترسل في الكلام دون أن يشعر فيعلو صوته حينًا غضبًا وينخفض حينًا حزنًا .. هكذا ... دون أن يعرف أيٌّ منهما اسم الآخر، أو يعلما أي شيء عن بعضهما...
بل لعل لذة التحدث إلى الغرباء والإفضاء لهم تكمن في أنهم لا يعرفون أي شيء عنا.. لا يعرفون الأشخاص الذين نتحدث عنهم ولن ينقلوا لهم ما قلناه.. لن يحكموا علينا بغلظة أو يغلبوا هوىً في أنفسهم على ما يحق أن يُقال...
وكأن تخلصنا مما يثقلنا مع من لا يعرفنا أشبه بإلقاء حجر في بئر عميق... فلا نحن نريد استعادته، ولا البئر سيلفظه...

انتهى من الحديث وأذان الفجر يتردد في الأنحاء.. ساد السكون بينهما حتى انتهى.. ثم قال الشاب وقد ارتفع حاجباه تأثرًا :
ـ أنا حقًا أشعر بالأسف من أجلك.

ساد الصمت مجددًا بينهما لبعض الوقت حتى قال الشاب ببطء :
ـ أتدري... أنا لن أبقَ في هذه الدنيا أكثر من هذا الأسبوع.

التفت إليه الرجل متعجبًا، فأكمل الشاب بابتسامة:

- لدي مرض عضال وأخبرني الطبيب أنه لم يتبق لي سوى بضعة أيام.....

ارتسم الانزعاج على وجه الرجل ولمعت في عينيه دمعة اشفاقًا منه على شبابه الغض..

ازدادت ابتسامة الشاب اتساعًا وربت على كتف الرجل وكأنه لم يلق بنبأ فظيع منذ لحظات، فاشتدت دهشة الأخير لحاله...

ثم بدأ الشاب يروي حكايته :

- وُلدت في قرية صغيرة لأم ماتت أثناء إنجابي وأب حنون فقير اضطر للزواج بعدها لكي يجد من ترعاني... كانت حياتنا صعبة وازدادت صعوبتها بتصرفات أبي التي كنت أستعجبها ... كان يُبقي بالبيت ما يكفينا بالكاد وما يزيد عن ذلك كان يعطيه لأول طارق.. كنت أتساءل عن ذلك في نفسي وأنا صغير وأحيانًا أسأله فلا يرد ويبتسم ويتركني. وحين كبرتُ قليلاً وصرت قرابة السادسة عشرة من عمري ثرت على فعله وانفعلت وأخبرته أننا هكذا سنظل فقراء طوال العمر ، فظلَّ صامتًا ثم نظر في عيني بعمق وحنو فهدأتُ قليلاً ثم رفع بصره إلى السماء وقال بخفوت: يا أكرم الاكرمين...

ولم يمض يومان على هذا الموقف حتى كان قد توفي ...

ابتلع الشاب ريقه ثم أكمل بصوت متأثر:

- وانقلب حال الدنيا بالنسبة لي.. بعد ما يقرب شهرين على وفاته طردتني زوجة أبي من البيت واستعانت عليَّ بأخوتها..

طفتُ بأقاربي فلم أجد منهم معينًا ولا مأوى.. حتى جنَّ الليل عليَّ فوجدتني وحدي؛ شريدًا في ليلة اشتدت ظلمتها.. فجلستُ على رصيف ضيق .. معدتي تئن من الجوع، وذلُّ الحاجة يوجع كرامتي...

وضعتُ رأسي بين رجلي... بكيتُ وتذكرت أبي فاشتد بكائي، ثم تذكرت فعله وغضبت منه أن لم يترك لي شيئًا يعينني، وتذكرت ما كان بيننا قبل وفاته، فرفعت رأسي إلى السماء وتذكرت كلمته؛ تذكرت كريم فعله.. ما كان أبي يرد طارقًا قط..

أيردني الله وأنا أطرق بابه وهو أكرم الأكرمين؟...

أحسستُ بما يشبه الصدمة..

وكأني لأول مرة أفكر في معنى الكلمة... ما رأيت عمري كريمًا يرد محتاجًا إذا لجأ إليه... فكيف بالله... أيردني وأنا في أشد حاجتي إليه...!!

تطلعت إلى السماء بعينين ملؤهما الأمل، وكانت دموعي لا تزال تنسال على وجهي.. رفعت يدي لأمسحها.. ثم تبدت لي فجأة حقيقة غريبة..

ظللت أنظر إلى يدي فترة من الوقت ... كان من الممكن أن يخلقني الله من غير يدين.. أو يجعل لي يدين لا تتحركان..

ثم انتبهت أني أنظر إليهما..

أنا أستطيع أن أرَ السماء وأن أرَ يدي.. عيناي تستطيعان البكاء توسلاً إلى الله.. أستطيع أن أشهق وأن أبكي دون أن يكون مع نفسي ألمٌّ يخالجني أو ضيق يطبق على صدري.. أستطيع أن أسمع أصوات الحشرات حتى لا أشعر بالوحدة..

بدأتُ أضحك من جنون أفكاري وغريب ما يخالجني من خواطر.

قمت واقفًا لأنفض عن نفسي هذا الهذيان... فوجدتني أستطيع الوقوف والمشي والجري...

كنت كطفل لأول مرة يكتشف حقيقة الأشياء.. أخذتُ أضحك من نفسي وأنا أجري وكأني أجرب قدميَّ للمرة الأولى..

ثم توقفتُ فجأة وبدأت أبكي... واشتد بكائي حين أدركت أن الله اختارني ليجعلني أدرك قيمة ما عندي... علمت أنه لم يردني.. لا يرد أكرم الأكرمين طارقًا ببابه قط..

أدركت أنه يراني.. أنه معي.. في هذه اللحظة ينظر إليَّ.. وكأنه يقول لي : " ءأخيرًا أدركتَ عبدي أني أكرم الأكرمين دون أن تشعر.. وهبتك كل شيء ولم تدرك ولم تشكر.. فما قطعت نعمتي عنك قط".

كانت دموع الشاب تجري على خده وهو يقول هذه الكلمات وقد ارتفع حاجبا الرجل تأثرًا وامتلأت عيناه بالدموع...

أكمل الشاب:

- فوالله ما أصبح الصباح حتى وجدت صاحبًا لي علم بحالي فألحقني بعمل بسيط لدي أبيه.. ومن حال إلى حال تقلبت حتى جئت إلى القاهرة وعملت في مصنع...

ثم علمتُ يومًا بإصابتي بهذا المرض.. حزن لأجلي من يعرفني.. وحزنتُ أنا في البداية .. وأخذت أسترجع حياتي، فحضر هذا الموقف حيًّا في ذاكرتي.. واكتشفتُ أنه ليس هناك ما يستبقيني في الدنيا، وشعرت بشعور غريب وكأن شكري لله من الدنيا لا يكفيني.. أنا أريد أن أذهب إليه لأشكره هناك... عنده... فوالله ما تركني قط... أشهد أنه ما ردني قط...

أخذ الشاب نفسًا طويلاً ليهدئ من أنفاسه المتلاحقة ثم أكمل:

- لا أدري ماذا يحدث في الموت، ولكني تعلمت شيئًا واحدًا؛ أن الله هو أكرم الاكرمين، وأعلم أني إذا ذهبت إليه طالبًا رضاءه وقربه؛ فلن يمنعني عنهما... ما عوَّدني ربي الحرمان أبدًا.

كانت دموع الرجل تجري على خده جريانًا.. وقد استطاع الآن مع بزوغ الفجر أن يرَ وجه الشاب علاه الاصفرار واحمرت عيناه من البكاء وبان عليه ضعف المرض...

أخذ الشاب يمسح دموعه، ثم ربت على كتف الرجل قائلاً:
- أخبرتك أني أشعر بالأسف لحالك، ولكن ليس لما مررت به... ولكن لأنك عشت من العمر مديدًا دون أن تدرك.. دون أن ترَ... ومازلت تشكي وأنت لا تدرك ولا ترى.. لو تفقدت حالك وعلمت ما أكرمك به الله ما حزنت أبدًا.

شعر الرجل أنه حيّ.. وكأنه ميت بُعث من جديد...
وعلى قدر حزنه على ما فات.. على قدر توقه لما هو آت.

قطع خواطره قيام الشاب من جانبه وهو يقول باسمًا:
- لابد لي من الانصراف الآن، فأنا أقيم مع أحد أصدقائي ولا شك هو قلق علي.

ابتسم الرجل ابتسامة شاحبة من بين دموعه ثم قال:
- على الأقل، هل لي أن أعرف اسمك ؟
- اسمي عبد الكريم.



وقف أمام المرآة يمشط شعره بعناية، ملامحه الوسيمة لا تشي بسنوات عمره التي قاربت الثلاثين. تناول الجاكت الأسود الأنيق وألقي نظرة أخيرة على العنوان الذاهب إليه، ثم التقط مفاتيح سيارته وخرج من الحجرة.

جال بنظره في الشقة الخالية وتساءل: هل ستسكنها يوما امرأة؟!

أغلق الباب خلفه على الوحدة الساكنة بالداخل وبعينيه نظرة شجن..

ليتها كانت معه، ها هو الآن معه الشقة والسيارة ومصاريف الشبكة والمهر التي لم يمتلكها منذ سبع سنوات... منذ سبع سنوات؛ حين كان غضًّا بريئًا؛ مفعمًا بالحب وأحلام الصبا...

لم يأبه لكلامها عن رفض أبيها وأقنعها أنه سيقنعه... ذهب إليه وحدَّثه عن الطموحات والعمل الجاد؛ عن الحياة التي قد يعيشاها بالكاد في البداية، ثم ستزهر رويدًا رويدًا، فلا يعقل أن نبدأ من حيث انتهى أهالينا !.

حدَّثه عن الشقة المتواضعة والعمل البسيط الذي لا ريب يومًا سيكبر، بل واندفع وأخبره أنه يحبها وأنها ست البنات وخيرهن، وأنه سيحافظ عليها كعينيه ويحميها بحياته..

كلاكس طويل أفزعه من ذكرياته، كلاكس طويل مزعج أشبه بأثر الرفض الذي تلقاه وقتها.. رفض تام كامل للفكرة من بدايتها، كيف أنه ما زال صغيرًا، وهو يريد لابنته رجلاً يحافظ لها على نفس مستوى معيشتها، كيف أن من حقه أن يطمئن عليها وأن يراها سعيدة هانئة، وغير محتاجة لشيء.

ضغط كلاكس حاد لسيارة أمامه منفعلاً كأنما القصة حدثت بالأمس..

وماذا عن حقي أنا أن أتزوج من أحب ؟ وماذا عن حقها هي أن تختار كيف تكون سعيدة ؟ ماذا عنا... ماذا عنا؟..

ثرت وثارت، ثم انتهت الزوبعة إلى لا شيء وأخذها أبوها معه إلى الدولة العربية التي يعمل بها.

انقطعت بينهما الاتصالات رويدًا رويدًا... وبعد سنتين سمع أنها تزوجت.

اغرورقت عيناه بلمعة الذكريات.. أين أنتِ الآن ؟؟

ها أنا.. ها أنا.. أملك الشقة الفاخرة والسيارة الجميلة والدخل الذي يرضاه أبوكِ..

و لكن، ذاهب...

ذاهب لألقي عروسة؛ أبوها منتظر من هو مثلي، "عريس لقطة" يملك شقة وسيارة ودخلاً مريحًا بعد سنوات الوحدة والشقاء..

ليحيا المجتمع ويسقط الحب..

زفر في يأس، انتزع نفسه من ذكرياته وهو يحاول أن يستعيد ابتسامة تعينه على ما هو مقدم عليه..

لم تمضِ نصف ساعة وكان قد وصل أمام العمارة في موعده تمامًا.

أما فوق، في الشقة، كانت العروس المنتظرة جالسة على سريرها تفرك يديها بعصبية، من أين أتاني عريس الغبرة هذا ؟!

قامت من مكانها ودقَّت الأرض بغيظ وهي تفكر:

- لن أتزوج إلا من اختاره قلبي فقط .

تعلم أنها مقدمة على فترة عصيبة، سيضغطون عليها ويضغطون ويحاولون إقناعها بكافة الطرق والوسائل، سيهددون ويتوعدون..

- يا ربي ماذا أفعل الآن ؟!

أخذت تطوف بالحجرة حتى سمعت جرس الباب، فهبط قلبها بين قدميها، دقيقة ووجدت أمها تطلب منها الخروج.

خرجت فوجدته أنيقًا، وسيمًا...

يبدو أبوها مستبشرًا وأمها فرحة..

- يا ويلي، ماذا سأقول عنه هذا ؟

" لن أقبل يعني لن أقبل "

جلسوا يتحدثون في مواضيع عامة وهي تنطق الكلمة بالكاد إلى أن استأذن العريس أن يجلس معها قليلاً، انزعج أبوها بعض الشيء فهو لم يعتد ذلك، لكن شجعته أمها بأن أخذت أباها وجلسا في الصالون المقابل.

حاول أن يفتح حديثًا معها وقد لاحظ إمساكها عن الحديث.. كان توترها بلغ أقصى درجاته، فانفجرت فيه بصوت هامس لئلا يسمعها أبوها وأمها:

- اسمع، أنا أحب شخص آخر، أرجوك.. أنت تبدو إنسانًا محترمًا ولا غبار عليك، ولكن أنا لن أتزوج غيره.

تراجع للوراء قليلاً متفاجئا من ردة فعلها، ظلَّ صامتًا بعض الوقت دون أن يقول شيئًا ...

أما هي فقد امتقع وجهها ولم تدر كيف تفوهت بذلك...

ابتسم لها ابتسامة طمأنينة وقال بخفوت:

- لا بأس.

شرد قليلاً ولم يستطع إلا أن ينساب مع تساؤلاته مفكرًا:

- ليت حبيبتي كانت فعلت مثلك...

دقائق من الصمت قطعها حضور أبيها وأمها...

كلمات مجاملة اعتيادية... لسان حاضر معهم، وقلب مغرق في الذكريات حتى انصرف.

في طريق عودته.. اتصل بصديقه الذي أحضر له العروس، وأخبره أنهما لم يتفقا كثيرًا.. كلام من قبيل... كله نصيب.

كان قد وصل إلى بيته بانتهاء المكالمة...

دخل شقته الخاوية..

مطرقًا إلى الأرض وكأنما يتجاهل سؤال الجدران الباردة...

- ماذا لو كانت حبيبتي فعلت مثلها؟..

هزَّ كتفيه في أسي وغمغم في خفوت:

- يكفيني أني لم أحرم حبيبًا أخر من حبيبته...

يكفيني أني حرمتُ المجتمع من رغبته السادية في تفريق الأحباء..

سأغلق تليفوني

قالتها بهدوء...

- سأغلقه... سأطفئ تليفوني.. سأغلقه.

أقفلت وفكّرت...

سأغلق تليفوني وأسكره...

سأحطم شاشته وأحرقه..

كل لا أظل على انتظار لا يكل ولا يمل لشاشة تنطق باسمه..

كي لا يعلق قلبي بين جوانحي.. منتظرًا بين الفينة والأخرى أن يدق دقة ليدق معه..

كي لا ينقطع به الأمل فييأس ويتوقف بعدما لم يعد موجودًا ما يعيش لأجله...

سأطفئه..

حتى أظل أقول.. لقد اتصل

حتى أظل متشبثة بخيط الأمل

بوهن الظن ولعل..

سأطفئه..

ضغطة واحدة بإصبعي..

ليس الأمر سهلاً.. أعني صعبًا

ولا خارقًا ولا مستحيلاً..

مستحيل...

سأطفئه..

أخبرته أني سأطفئه...

وقد كنتُ وددتُ لو تشبث بي قليلاً ..

وألحَّ على ألا أطفئه..

لكنت تشبثت أنا بإلحاحه..

ولو قليلاً..

وما سمحت لإصبعي أبدًا أن يطفئه..

سأطفئه...

بدت كطفلة عيناها بالدمع تائهتان..

وهي ترقبه..

علها أوحشته

الآن سيتصل..

أضاءت الشاشة فالتقطته بلهفة...

"بطارية فارغة"

تساقطت تلك الدموع التي كانت معلقة على رموشها..

ولهذا كنت سأطفئه..

التقطته بأصابع مرعوشة وأوصلته بالكهرباء..

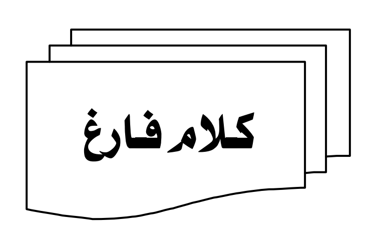
لم تستطع ككل مرة..

أن تطفئه..

إدعاء فارغ وكلمات في الهواء..

سأبقيه فقط بعيدًا ...

كي لا أكلمه.



طاولة مستديرة في النادي على طرفيها جلسا.. متباعدين..

هو يلوك بين أسنانه "خلة" رفيعة، فيما اتكأ على كرسيه في جلسة مريحة توحي بمعدة ممتلئة .. بينما أصابعه تتنقل على أزرار تليفونه المحمول ونصف ابتسامة يجاهد لكي يخفيها تلعب على شفتيه..

هي..

كما هي دائمًا ..

وكما ستظل دائمًا ..

صامتة.. ساكنة.. محدقة في الفراغ بملل..

بطرف عينها لمحت ابتسامته المختفية وباشمئزاز نظرت بعيدًا عنه ... يحسب أنها لا تدري أنه يكلم هذه وتلك ويحدثهن بالساعات على الإنترنت..

غيرة !!... لا تحسب أنها غارت عليه أبدًا .. إنما ثارت فقط لكرامتها المهدورة..

اشتكت لأمها التي ردت بجملة قصيرة من نوعية :

"كل الرجالة كدا"

يا ليتها لم تقل شيئًا ..

لم تعد للموضوع مرة أخرى وتعايشت كأنه لا يحدث..

قطع شرودها قفزة صبيانية عنيفة في حضنها من ابنها الذي أنهى لتوه تدريب الكاراتيه الخاص به..

تلقفته بسعادة.. احتضنته طويلاً؛ كأنما تترجي طفولته أن تذهب عنها نيران الغيظ التي تتآكلها..

انشغلت به تمامًا عن ذلك الذي لم ينتبه حتى لمقدم ابنه سوى بنظرة ألقاها عليهما كأنما يتأفف من الضوضاء..

بلهجة باردة وجهتها له قائلة..

- أنا هروح عند ماما شوية النهارده.

لم يكلف نفسه عناء الرد عليها واكتفى بهزة رأس موافقة..

تناولت حقيبة ابنها من على الكرسي وانطلقت معه...

كلما ازدادت ردودها برودًا؛ كلما اشتعلت براكينها أكثر..

لم تعد تطيق معه الحياة..

لم تعد تحتمل رائحة فمه المعبقة بالسجائر وهو يقترب منها..

ولا خلته المقززة التي لا تفارقه..

كل تفاصيله الصغيرة تزعجها..

كذبه الذي يصدقه هو وحده.. ويصدق معه كم هي ساذجة..
فترات الصمت الطويلة..
والوحدة التي تسكنها..
ليس من حل سوى الانفصال..
بلعت ريقها وهي تنظر إلى ابنها الوحيد وقرة عينها..
لتقول اللفظ الصحيح إذن.. "الطلاق".. هو حلها الوحيد..
هم ثقيل جثم على أنفاسها..

"مطلقة"

تلك الكلمة الغولة التي يخيفونني بها دائمًا .. ويقربون مشعل نيرانها من وجهي ليطردوا الفكرة من رأسي..
نفس عميق في عزم.. ثم رددت: سأفعلها اليوم.

كانت وصلت بيت أهلها منذ وقت..
نزلت وفي يدها ملاكها الوحيد..
استقبلتها أمها بالأحاديث المعتادة ، والحكاوي الكثيرة التي انتظرت أن تنهيها كلها.. ثم ببطء ألقت قنبلتها :
- أنا عايزة أطلق...

كمن تنظر إلى مجنونة بارتياع حدَّقت فيها أمها غير مصدقة.. وبنبرة عالية حازمة:

- إيه الكلام الفارغ دا.. مسمعوش تاني أبدًا .. مفيش حاجة اسمها تطلقي.. إنتِ اتجننتي.. الناس تقول علينا إيه..

بحزن صمتت.. لا فائدة..

لابد أن تحترم ما سيقوله الناس.. عليها أن تسمع كلامهم وتخضع لرقابة ألسنتهم..

بدون كلمة..

أخذت ابنها وذهبت..

دخلت شقتها بمفتاحها الخاص..

بالطبع لم يعد حتى الآن..

فتحت التليفزيون فوجدت البطل التركي يصرخ في ابنته قائلا..

- انتي جنّتي.. كيف بتعملي هيك.. انت مرة مطلقة.

بسخرية مريرة ذات لهجة شامية.. علقت:

- مش أحسن ما كون مرة ميتة.



دفء الغياب

فراشات صغيرة يشكلها ضوء الشمس المنعكس على حائط غرفتها...

تفتحت عيناها الواسعتان في براءة؛ كأنما لتوها أفاقت من حلم جميل..

داعبت بنظرة طفولية أجنحة الفراشات الشمسية المتناثرة..

هدوء الصحو في نفسها كمياه رائقة تتأرجح مع النسمات..

سرحت قليلاً ..

ثم بيدٍ مرتجفة اللهفة تناولت صورة زوجها من جانبها..

تأملتها قليلاً بابتسامة حانية..

اقتربت بأنفاسها..

ثم قبلتها..

قبلته..

برقة.. وشغف..

"صباح الاشتياق"..

همست إليه..

أعادت الصورة مكانها..

ثم تقلبت ببطء على جانبها..

بأنامل مرتعشة تفقدت دفء الغياب..

دسَّت أنفها في وسادته واستنشقت طويلاً.. طويلاً..

واستغرقت عميقًا؛ عميقًا... في رائحته..

بأصابع منقبضة على الملاءة.. تعلقت به ، واحتضنته..

حضنًا دافئًا.. حنونًا.. مشتعلاً..

بينها.. وبينهـ...ا

أزاحت الغطاء قليلاً .. بعيدًا ..

يكفيها أن تتدثر به...

وتستلقي في حضوره الحالم..

طرقات على الباب...

مقبضه يتحرك...

ثم دخل..

هو..

بإشراقة قدومه..

تلقائية رجولته..

وحنوه الآسر...

اقترب منها بابتسامته الرائعة..

تناول يدها برقة..

ثم طبع عليها قبلة حنونة قائلاً:

- صباح الخير يا حبيبتي.

ارتفع حاجباها في تأثر واضح..

وارتفعت يدها تتحسس وجهه الجميل.. وملامحه المتناسقة..

فابتسم بحنو..

قبَّل باطن يدها.. ثم قال..

- سأحضِّر الفطور وأعود إليكِ...

أرادته ألا يذهب...

- أنت زادي.. لا تذهب..

كانت خطواته أسرع من ترجمة مشاعرها لكلمات منطوقة..

رأته يغلق الباب خلفه.. فاحتضنت يدها التي قبلها..

وظلت ساهمة في الفراغ...

أما هو...

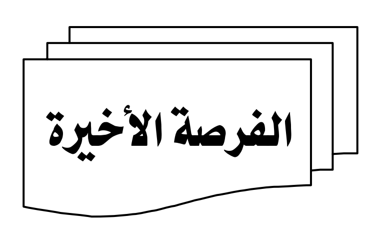
فخرج من الغرفة.. واستند إلى الحائط في وجوم حزين إلى أن أفاق على يد تربت على كتفه..

كان خاله الذي قال وهو يشير لباب الغرفة..

- كيف حال أمك ؟

غمغم في حزن..

- كما هي... منذ مات أبي ، هي تعتقد أنـي.. هو.



راقبها من بعيد وهي تجتاز القاعة بأناقة وكبرياء ملكة...

فستانها الأبيض ينسحب على الأرضية وراءها وكأنما يترك نتفًا من ثلج...

فيها شيء يذكره بالشتاء...

نفث دخان سيجارته وأخذ يراقبها من بين الدخان المتصاعد في متعة..

متعة سيجارته المشتعلة واحتمالية قصة جديدة تشوق لها قلمه...

عنق مرمري يزين كتفيها الانسيابين في أنوثة تكشف عن نفسها بلا مواربة...

جلست على مقربة منه...

كان بعيدًا بما يكفي لئلا تلاحظه..

وقريبًا بما يكفي ليلاحظ تفاصيلها..

في عينيها شيء يثير الشجن...

انحناءاتها تشي بصقيع فراغ عاطفي يبحث عن دفء الاحتواء...

بأصابعها الطويلة الرقيقة تناولت كأس العصير بهدوء يخدع أي عين...

إلا عينيه الخبيرة التي التقطت ارتجافة شملت أطرافها لثانية...

أخذ نفسًا أعمق من سيجارته التي التصقت بأصابعه...

وكأنما تترقب مع صاحبها الحركة التالية منها...

ظلت ساكنة مصوبة بصرها تجاه الباب...

ومع كل انفراجة ضئيلة تشرئب في أمل...

ثم تعود لتستكين في خيبة...

ظلَّ يرقب معها القادمين ويخمِّن أيهم تنتظره تلك الفاتنة...

رنة خافتة من موبايلها الملقى على الطاولة...

تحرك بمقعده قليلاً لكي يسمع الحوار في فضول بلغ مبلغه...

كانت تكلم فتاة أخرى ...

صديقتها ربما.. أو أختها... أيًّا كانت يبدو من الكلمات أنها تلك التي تحفظ سرها...

- لم يأتِ بعد.

صمتٌ قصير..

- هذه المرة وعدني أنه لن يخيب أملي.

انزعاج في ارتفاعة حاجبها... ثم حدة في صوتها..

- لا.. هذه هي الفرصة الأخيرة.

بصوت خافت سمع بصعوبة...

- كفاني خيبات أمل.

تنهيدة من شفتيها الرقيقتين..

- سيأتي هذه المرة.. لقد وعدني.

صمتٌ قصير ثم أقفلت.

ظلَّ معها يرقب قدومه وكأنما من فرط تأملها صار يشاركها الانتظار...

نصف ساعة..

ساعة...

وهي على ما هي عليه دون حراك...

هدوء قاتل يسود ملامحها...

ثم تناولت حقيبتها في النهاية وغادرت...

بنتفات الثلج يتركها ثوبها الأبيض...

كأنما الشتاء اتخذ من روحها موطنًا..

احترقت سيجارته الخامسة حتى النفس الأخير...

استعد للرحيل...

ثم شاهد...

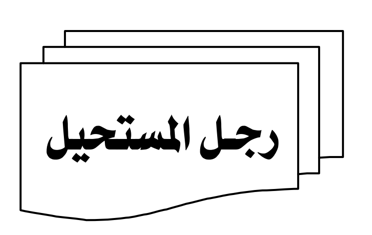
فتى مسرع يسأل الجرسون في جزع عن طاولتها...

ثم تحول الجزع إلى أحزان محفورة على جبهته وهو يتمتم..
قارئا شفتيه..

- كانت الفرصة الأخيرة..

تنهد في أسي وهو يشاهده يرحل ..

لماذا نترك الخيبات تتراكم دائمًا حتى الفرصة الأخيرة !



رجل المستحيل

أخذت أصابعها تعبث في الشنطة باحثة عن المفاتيح التي اختفت فجأة كعادتها، كل يوم تلعب نفس اللعبة مع نور السلم الذي ينطفئ بمجرد أن تبدي رغبتها في فتح باب الشقة.

بمهارة مَنْ اعتادت اللعبة؛ أخرجت المفتاح من وسط آلاف الأشياء التي لا تدري سبب وجودها.. فتحت الباب وانسلت إلى الداخل وهي تطلق الحذاء من قدميها التي أدماها الكعب العالي، وضعت الملف الذي كان بيدها الأخرى على السفرة وهي تفكر أنها لابد أن تنهيه اليوم لتسلمه غدًا.

بخطوات بطيئة مرهقة دخلت حجرة النوم، تناولت ملابسها وإلى الحمام رأسًا... عشر دقائق وخرجت بفوطة ملفوفة على رأسها... لم يبق لها إلا عشر دقائق أخرى لتستريح فيها قبل أن يصل باص المدرسة بولديها الصغيرين.

مممممم.... هناك غسيل على الحبل وآخر لا زال في الغسالة يريد أن يحل محله على الحبال.. لابد أن يُنشر اليوم لأن قميص زوجها الأبيض فيه وهو يريد ارتداؤه غدًا، ليت كان باستطاعتها

ارساله للمكوجي، برغم أنه حرامي ولكن خير من المكواة.. آه كم تكره المكواة وتراكمها..

جرس باب يرن بلا انقطاع في رأسها، ابتسمت في يأس وهي تنظر للساعة التي لم تمضِ منها إلا خمس دقائق ضاعت في الغسيل والمكواة.
نفس عميق، شدت قامتها وكأنها عسكري جيش، بخطوات واسعة ذهبت إلى الباب لتستقبل ولديها الذين قفزا عليها بغباوة الأولاد الأشقياء...
الآن تعلم لم تمنت بنتًا !

احتضنتهما بقوة وكأنما تعتذر لهما عن تمنيها وتؤكد حبها...
رما حقيبتيهما بسرعة في حجرتهما ثم لحقا بها إلى المطبخ وهما يتكلمان في نفس واحد عن مشاجرة اليوم.. الولد الجديد بالفصل.. المعلم الذي أعطى أحدهما نجمة.. وأخر لعبة بلاي ستيشن جديدة اتحدا في مطلبهما بالحصول عليها...

كانت تستمع لهما وترد عليهما، وهي في نفس الوقت تراقب الزيت على النار وتحرص على ابقائهما على مسافة بعيدة عنه، ثم تضع الرز وتعود لتكمل غسل الأطباق المركونة من الإفطار، تزيح أحدهما الذي يصر على الاقتراب ليشاهد وهي تقلب الرز مجددًا.

ابتسمت ابتسامة متعبة وهي تفكر، ها هي أصبحت رجل المستحيل الذي بمعجزة ما يحرك أطرافه الأربعة في آنٍ واحدٍ خارقًا قوانين الطبيعة..

خفضت الحرارة تحت الأرز وتركته ينضج، ثم حملت طفليها تحت إبطيها وهما يضحكان ويركلان بقدميهما.. ثم ألقتهما على الأسرة مع أمر حازم أن يبدلا ملابسهما ويستعدا للغداء.

انطلقت للبلكونة من أجل الغسيل، ثم تركته في منتصفه لتفتح الباب الذي رنَّ مجددًا ليدخل منه زوجها... تنهدت في استسلام مرهق.. يُصر كل يوم أن يضرب الجرس لتأتي ثم يفتح بمفتاحه.

تمتمت في تسليم : لا إله إلا الله..

أقبلت عليه، تناولت منه الجاكت ومشت وراءه إلى حجرة النوم وهو يزمجر من الحر والزحمة والشغل الذي لا ينتهي واضطراره أن ينزل في المساء للشغل مرة أخرى.

ربتت عليه بحنان وهي تتمتم بشيء عن أن " كله بيعدي ".

تركته فجأة وقد تذكرت الأرز المتروك على النار، أطفأت البوتاجاز ثم ذهبت لإعداد السفرة واستغلت الدقائق الباقية في انهاء مهمة الغسيل المعلقة، وضعت الطعام وجلسوا لتناوله... هي صامتة متظاهرة بالاستماع والأولاد يكررون على مسامع أبيهم ما لتوهم أخبروها به من أحداث اليوم.

حملت بعدها الأطباق وأخذت تنظف المطبخ.. ثم خرجت منه بعد نصف ساعة لتجلس بجانب زوجها على الأريكة أمام التلفاز ملقية برأسها إلى الخلف بعينين نصف مغلقتين ووجه عابس.

ـ مالك ؟

سألها ملتفتًا إليها..

لم تملك إلا أن تبتسم...

هناك أسئلة يكاد يكون من المستحيل الرد عليها...

بأدب !

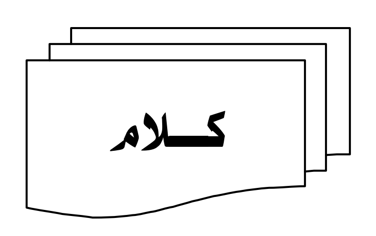
كانت أعصابه ثائرة من الشغل الذي سيضطر أن ينزل من أجله في المساء، تضايق من ابتسامتها التي بدت له مستهزئة فقال بلهجة حادة..

"مالك ؟ ألم تسمعيني يعني ؟!"

التفتت إليه ببطء غير مستطيعة حتى أن تحرك لسانها لترد، وبهدوء غير عابئة بحدته تناولت ذراعه... لفته حولها ومالت برأسها على صدره مغمضة عينيها في تعب.

امتص تعجبه من تصرفها حدته ثم لان للينها بين ذراعيه، قبَّلها على رأسها فابتسمت...

ليته فهم أن هذا كان كل ما تتمناه..



نظرت بأسى ممتعض إلى حذائها الجديد الذي كلله الطين من كل جانب..

أصابعها المثلجة اختبأت في جيبها من سيول المطر المنهمر فوق رأسها وهي تسارع للاختباء بواجهة أحد المحلات..

نظرت إلى طرف السحابة المارة وابتهلت أن تمضي سريعًا حتى تستطيع العودة لدفء المنزل..

تحب المطر وتعشق رائحة التراب المبلول الذي يخلفه وراءه.. ولكن.. من الحب ما قتل من كثرة إغداقه.. أو بالأحرى اغراقه.

بهدوء وكبرياء ملكة ؛ مرَّت تلك السحابة الممتلئة تاركة وراءها رذاذًا خفيفًا ما لبث أن توقف..

بخطوات واسعة حاولت أن تتحايل على البحيرات العائمة في كل جانب.. وهي تتلقى في وجهها صفعات الهواء الثلجي... وتتمتم..

- ليلة تلج..

وقفت تحت عمود نور في أخر الرصيف .. مستأنسة بضوئه والناموس الذي شاركها إياه..

أشارت لمليون تاكسي...
هكذا بدا لها الرقم من كثرة ما رفضوا أن يقلوها معهم..
زفرت في حنق وهي تغمغم..
- يا ولاد الـ**** مفيش في قلوبكم رحمة في السقعة دي...
ظلت نحو نصف ساعة واقفة حتى أخيرًا رحم أحد التاكسيات حالها ووافق أن يقلها إلى حيث تريد.

اختبأت في ركن السيارة من الهواء البارد الذي ينبعث من شباك السائق وخبأت كفيها تحت رجليها علها تحصل على بعض الدفء...
ثم لمحت...
طفلاً أسمر شارد النظرات.. أقحم أنفه في زجاج محل الوجبات السريعة.. بالتحديد في منطقة لعب الأطفال الموجودة في آخره...
توقف التاكسي في الإشارة، وكأنما أراد القدر أن تطيل النظر قليلاً...
لمعت عيناها في تأثر واضح... ترى لو أرادت أن تأخذه من يده وتدخله ليلعب معهم .. هل سيرضي الأهالي عن موقفها، أم سيشتكون لإدارة المحل .. سيظنون به النصب والشحاذة .. أم سيخافون على أطفالهم من قذارته التي لا ذنب له فيها..

راودتها إنسانيتها هامسة أن تنزل من التاكسي الآن وتذهب لتشتري له وجبة من المحل يتدفأ بها في هذا البرد القارص...

ظلت عيناها معلقتين بوجهه البريء الذي تجرد من كل قسوة الشارع وهمجيته.. وعيناه المعلقتان بالأطفال الآخرين القافزين فوق الكرات الملونة في دفء الداخل.. نسي حتى برد الخارج.. نسي كل شيء في تطلعه الحزين المكبوت..

نغزها ضميرها مجددًا..

هيا انزلي.. بسرعة.. قبل أن يتحرك التاكسي من الإشارة..

افعلي شيئًا ..

امنحيه على الأقل وجبة دافئة في هذه الليلة الناهشة البرودة..

نظرت له بتردد..

ثم تحرك التاكسي مسرعًا نحو وجهتها..

أحنت رأسها في خزي..

ليتها فعلت شيئًا ..

ليتها نزلت ومحت شقاءه ولو لليلة واحدة..

ليتها فعلت شيئًا ...

نزلت بخطى حزينة.. تجاوزت بحيرات شارعها..

صعدت إلى بيتها..

غيرت ملابسها المبلولة بأخرى ناعمة، دافئة..

فتحت الفايسبوك.. ثم كتبت..

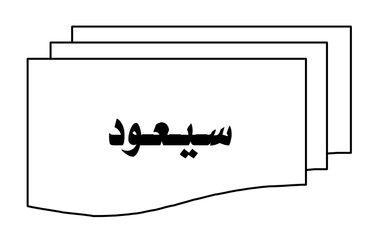
- (وأحلام الأطفال قطعة حلوي وهذا طفل يبيع أحلامه... نجيب محفوظ)

تصفحت بعض الصور قليلاً، ردَّت على بعض الكومنتات..

ثم أغلقت حسابها وتوجهت للنوم بخزي مذنب..

هذا كل ما يحصلون عليه منا..

كـــلام.



كانت آخر صورة في يدها...

وضعت بعض الغراء على عمود النور...

ثم ألصقتها وهي تمر بأصابعها في شوق وحنو على ملامح وجهه... انقبضت يدها حين اصطدمت بكلمة... "مفقود"

تلألأت عيناها بالدموع...

مرَّ ما يقرب من سنة على غيابه منذ فُقد في أيام الثورة...

مفقود يا حبيبي.. وأنا من بعدك فقيدة..

مسحت دموعها وهي تطمئن نفسها قائلة:

- سيعود...

بخطوات هزيلة عادت إلى البيت لتستقبل ابنها الوحيد منه عائدًا من مدرسته...

ظلت كالنحلة طوال اليوم.. تدور في أرجاء المنزل مخترعة أعمال لا وجود لها حتى لا تنفرد بنفسها..

حتى لا تجالس وحدتها.. وتلتقي بدموعها..

وفي الليل.. حيث الخيالات المرهقة...

الأعصاب التلفة..

والاحتمالات التي لا حدود لها...

أمازال حيًّا ؟؟

وإذا كان حيًّا... لماذا لم يعد حتى الآن ؟

كيف استطاع أن يعيش دوني ؟..

يعيش.. !

من قال إنه يعيش؟

قد يكون مات..

تتسع حدقتيها فزعًا...

تشعر بانتفاضة ترج جسدها..

ثم تنفجر في البكاء...

فتبكيه وتبكيه وتبكيه...

وتتخيل جثته.. تارة مضرجة بالدماء...

وتارة ملقاة في الشارع..

تتخيل من يحمله بعيدًا ...

جثة مجهولة كمئات الجثث...

ثم يصلون عليه..

وتمشي معهم في جنازته... بذهول...

يتردد صدى صرخاتها أمام قبره وهم يدفنون جسده الحبيب...

حتى يبتعد...

فتبكيه وتبكيه وتبكيه...

حتي ينفطر كبدها حزنًا..

ثم تفيق من خيالات جنازته على تنهيدة ملتهبة وصوت في قلبها يخبرها أنه... سيعود..

سيعود؟..

ربما لا يستطيع أن يعود...

ربما يحتجزونه في نفقٍ ما في أمن الدولة..

ربما يعذبونه الآن..

فتعود تبكي صرخات ألمه.. وتشهق من تصورات تعذيبه...

تضمد جراحه وتمد يدًا في الهواء تلمسه...

فتقع في الفراغ...

منهارة...

تزحف في الظلمة حتى ثيابه التي كانت آخر ما لبس...

تحتضنها بقوة كأنما تضمه..

تغمر نفسها في رائحته..

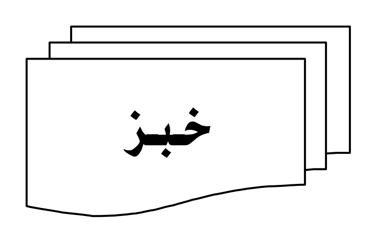
حتى تنام...

ثم تصحو بأمل جديد...

ربما سيعود اليوم...

كل يوم يحمل أملاً بأن يعود..

كل يوم...



بمفرده وطوله الفارع مشى في الطريق المظلم...

عامود نور كئيب ينطفئ أكثر مما ينير...

قطة جائعة تموء على الرصيف..

تجاوبت معها أصداء معدته الخاوية...

رياح شتوية تخترق أسماله البالية وتجمد الدم في أوصاله..

أصابعه تتجول في جيبه الخالي من أي أوراق...

أوراق مرسومة بالأرقام حكم الناس أنها لابد منها للمعيشة...

وبدونها لا شأن لك بالحياة...

سائرًا على غير هدى..

وجد نفسه اقترب من الميدان..

البشر يعجون بصخبهم عن الدستور والإعلان الدستوري والمسودة الدستورية والأعضاء المنسحبين من وضع الدستور...

رمقهم بنظرة خالية..

وبنصف ابتسامة صفراء تساءل في ذهنه :

هل يوجد خبز دستوري؟



وقفت تتطلع إلى النيل الممتد أمامها في سكون لا يشبه صخب المشاعر الفائرة في صدرها، سلاسل الذهب التي تلمع على سطحه انعكست في بريق عينيها وإن لم تخف حدتهما...

معقودة الحاجبين، منتصبة القامة، شبكت يديها خلف ظهرها وقد بدا مظهرها جادًا للغاية...

- سأخبره حين يجيء أنه لابد أن يبتعد عني، أنا امرأة قوية...

لن يجد عندي ذلك الخضوع الأنثوي الذي يبحث عنه الرجال.

تذكرت عيناه حين تضيق قليلاً وهو ينظر إليها وكأنه يبحر في معالم وجهها بلا خريطة ويستمتع بأن يتوه قليلاً قبل أن يجد الطريق...

يحفظ ثنيات ملامحها وإن كان في كل مرة يبدو عليه شغف من يكتشف عالم جديد.. بكر.. لم يسبق لأحد دخوله..

هزت كتفيها في استخفاف:

- سيعيش تعيسًا معي ولا شك.

نظرة بطيئة.. متأنية.. طويلة... تطوف بحنان ورقة...
تندفع حمرة قانية إلى وجنتيها.. تشعل حنانه لهفةً ورقته شوقًا...
لا تريد أن تتحول بعينيها إلى الأرض.. هي ليست ضعيفة...
يزداد لهفة.. ويتدفق حنوٌ آسرٌ من عينيه...
لا تحول عينيها... فيستقر... من تعب الإبحار.. فيهما...
ليبدأ رحلة جديدة... ليست كأي شيء في هذا العالم....

- لست أنا... ما من رجل استطاع أن يخترق حصوني.. أو يدك أسوار دفاعاتي... لست أنا.

بدأت حدتها تقل... أرادت أن تبتسم في سخرية..
فخرجت ابتسامتها مرتعشة؛ على الرغم منها.
أحكمت قبضتها على السور.. لتُوقف ارتجافة أصابعها...

رحلة ليست كأي شيء في هذا العالم... بلا بداية.. ولا نهاية...
حمرة وجنتيها تصبغ وجهها كله.. دفقات حنانه تطل من عينيها..
هدوء نظرته كالعائد إلى وطنه بعد طول غياب... سكون مشوب باللهفة في عينيها...
الوطن دائمًا يحتضن أحبابه...
قلبها يهوي إلى قدميها.. انقباض في معدتها.. رجفة أصابعها.. وارتعاشة شفتيها...

اختفت صفحة النيل المنبسط.. وسلاسل الذهب ... تحول النيل بكل دفئه واتساعه.. إلى.. عينيه.

ترددٌ شاب صوتها المبحوح:

- لستُ... أنا...

دائمًا ما تستسلم في النهاية...

أهدابها ترتخي على عينيها في خفر.. تنظر إلى أي شيء حولها.. هاربة منه.. من نفسها.. من قلبها الذي يرتجف كعصفور في برد الشتاء...

من لهفة يدها إلى الاطمئنان في كفه...

من عينيه...

من عشقها للرحلة التي ليست كأي شيء في العالم....

- أهذه... أنا... ؟!

أطراف أصابع مسَّت كتفها... سرت قشعريرة في جسدها...

التفتت...

فكانت عيناه...

وابتسامة ثغره الواسعة...

لم تهرب هذه المرة....

لم تنظر إليه في تحدي...

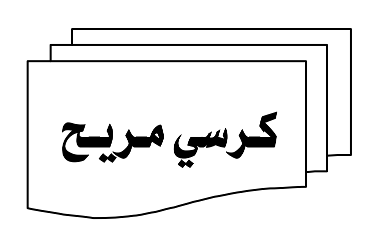
فقط.. نظرت إليه...

بخوف من نفسها... واطمئنان إليه...

ودون أن تدري...

وجدت لسانها يتمتم :

- ماذا فعلت بي ؟.



غاص في كرسيه المريح القريب من النافذة...

عيناه ساهمتان في الفضاء المطل منها...

وكأنما يعكس فضاء نفسه وفراغها...

هبة هواء باردة لسعت أطرافه...

مدَّ يده ليغلق الزجاج..

فعلق بصره بيده المغضنة الذابلة...

سنوات عمره الستون محفورة تجاربها في تقاطعات جلده الشاحب...

وكأنما العمر لحظة...

كأنما كل الأحلام والآمال وحيوية الشباب واللهاث خلف لقمة العيش..

لحظة..

نصف ابتسامة ساخرة..

كأنه أنفق عمره كله لقاء هذه الجلسة المريحة بجانب النافذة...

وحيدًا..

حاول أن يهرب من وحدته فتناول رواية بجانبه...

انهمك في مشاعر أبطالها واستغرق فيها..

متجاهلاً ذلك الشعور الملح السخيف..

ما فائدة المتعة حين لا تجد من يشاركك إياها ؟..

طرقت مسامعه ضحكات عالية مختلطة بسباب وشتيمة...

ابتسم في حنان وقد عرف فيها صوت ابنه وأصدقائه...

ألقى عليهم نظرة من النافذة متطلعًا إلى حيوية الشباب فيهم، وكأنما يود لو يسرق منها قبسًا..

يود لو أن مقعده الآن خالي وكان واقفًا يتلقي لسعات البرد معهم بصدر مفتوح.. بلا وحدة ولا هموم..

رآهم ينصرفون وابنه يدخل العمارة..

منَّى نفسه بمزاج ولده الرائق.. لو فقط يعطيه بعضًا منه..

فتح الباب بمفتاحه... لم ينتبه لأبيه الجالس في الصالة..

فناداه..

مشى ناحيته متثاقلاً..

فلما رآه قال بابتسامة تحمل كل الرجاء :

- ألا تأتي نشرب كوبا شاي معًا ؟

فردَّ ابنه بابتسامة متعبة :

- لا أستطيع والله يا أبي... من الصبح وأنا في الكلية.. لا أستطيع أن أرفع رأسي حتى.

لم يرد عليه..

فقبله ابنه قائلاً..

- تصبح على خير .

ثم انصرف...

راقب شبابه وحيويته ينسحبان معه...

وبأسى أمسك روايته مجددًا وهو يفكِّر..

كان يرغب فقط...

في بعضٍ منه...

له !.



كانت الساعة قرابة السابعة صباحًا حينما جذبت صديقتها من يدها داخلة الحديقة التي كانت لتوها تفتح أبوابها للزائرين..

اعترضت صديقتها قائلة..

- يا مجنونة... سنتأخر على المحاضرة.

تجاهلتها بابتسامة واسعة وهي تمتلئ بنفسٍ عميقٍ معبقٍ برائحة عشب الصباح الندي...

أغمضت عينيها وقد أصبحت في حالة تناغم تام مع جو الصباح الرائق والطبيعة النضرة...

كادت صديقتها تقول شيئًا... ولكن قاطعتها مندفعة في كلمات متتابعة :

- دائما كنت ومازلت أعتقد أن حاسة الشم هي الأكثر تميزًا وملكية بين جميع الحواس على الإطلاق..

إنها الحرية في أنضر صورها وأبهاها..

الحنين في أكثر لوحاته شجنًا..

الشغف في أشد لحظات جنونه..

إننا حين نغمض أعيننا ونطلق لحاستنا أن تتلمس طريق الروائح؛ إنما في الحقيقة نطلق العنان لخيالنا.. لأقصى طموحاتنا وأحلى أحلى آمالنا لتتحقق تمامًا كما كنا نتخيلها دائمًا ..

إنه التجرد الأفضل من كل الأحكام المسبقة ..

إنها فقط الرائحة تتسلل إلى أنفك مشبعة بالحياة.. تاركة لكِ كل الحرية أن تصيغي شكل هذه الحياة كما تشائين...

اغمضي عينيكِ... استنشقي رائحة النعناع العطرة وارسمي بخيالك لونًا أخضر مبهجًا يحمل تفاؤل ساعات الصباح الأولى.

نظرت لها في استنكار وقد أصبحت الآن تتخذ خطوات بطيئة في الممر المزدان بالورود... مغمضة العينين...

مرَّت بأناملها على الوردات التي اشرأبت أعناقها من خلف الأسوار القصيرة وأكملت:

- هذه وردة تضوعت بكل ما فيها من عطر حتى أكاد أشعر بطعم نداها على شفتي.

مرَّ بجانبها عاملٌ يحمل رغيفًا طازجًا...

فاستنشقت بقوة أكبر:

- لا أدري من أين أتت هذه الرائحة اللذيذة الساخنة؟...
  تذكرني بإفطار الصباح
  ورائحة.. أمي

حنو الحضن المشبع بالدفء والأمان..
والاهتمام النابع من القلب.

نظرت لها صديقتها في عجب وقالت مازحة:

- فعلاً.. لم يكن ينقصك ليكتمل جنونك إلا أن تلصقي بالبشر الروائح.

فتحت عينيها ونظرت لها بحماس وهي تقول:

- أنتِ تمزحين..

بالطبع لكل إنسان رائحته المميزة المعطَّرة بإحساسنا به...

إن أي عاشق يدرك أن لحبيبته رائحةً لا تقاوم...

رائحة لا علاقة لها بالعطور المصنوعة...

عطر من نوع آخر...

عطر فواح من النعومة والأنوثة الذي ينتقل إليه دون أن يمسها..

فقط بأن يستنشقها..

عميقًا..

ويمتلئ بشذاها...

وأي حبيبة تحفظ عن ظهر قلب رائحة حبيبها..

حين تضم ثيابه إليها..

وتغمر نفسها في حواسه المعطرة بها..

إن الرائحة لهي دائمًا الدليل الأوثق لأجمل ذكرياتنا..

إننا قد ننسى اسمًا.. أو شكلاً..

لكنا أبدًا لا ننسي أجمل روائح الذكريات .. تلك التي توقظ الحواس في لحظة..

تبعث فينا نشوة السعادة التي احتوتنا يومًا..

حتى وإن لم نتذكر الموقف..

لا يمكن أن ننسَ أبدًا رائحة الاحساس.."

هزَّت صديقتها كتفيها في استسلام وهي تتمتم:

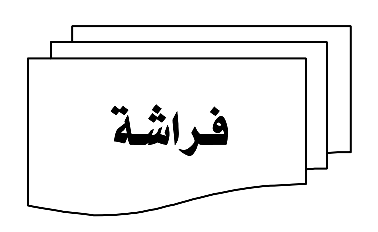
- مجنونة.

لم ترد.. وإن ابتسمت حالمة بعينين مغمضتين...

- لن تستطيعي أن تفهمي ما لم تطفئي كل حواسك..

وتتركي لهذه الملكة... - وأشارت لأنفها- ..

أن تتقدم موكبك.



شعر متطايرة خصلاته جمعته فوق رأسها في كرة عجيبة لفتها حول فرشاة الألوان...

بتركيز شديد مالت على اللوحة أمامها تضع عليها لمساتها الأخيرة...

بضع دقائق ثم ابتعدت للوراء..

أخذت تنظر لها من زوايا مختلفة وابتسامتها تتسع...

ثم اقتربت مجددًا.. وأضافت بعض الرتوش..

نظرة أخيرة...

ثم ابتسامة عريضة شملت وجهها الطفولي كله وهي تصفق بيديها:

- رائعة.

تأملتها لحظات سعيدة بما أنجزته...

نشوة متألقة انعكست على وجهها الذي أشرق...

كم تسعد حين تكون اللوحة وفقا لما تخيلته تمامًا ...

ستضعها في منتصف القاعة يوم يتحقق حلمها بإقامة معرضها الخاص...

شعرت برغبة مفاجئة في الاحتفال...

فتحت النافذة على مصراعيها تاركة نور الشمس يتدفق داخلها...

وضعت قطعتها الموسيقية المفضلة وأخذت تتمايل على وقعها...

دائمًا الفن يجعل روحها تتفتح كفراشة لتوها غادرت شرنقتها...

شعرت ان كل هذا لا يكفي...

تحتاج لاحتفال أكبر مع نفسها...

كلمة سحرية وحيدة صفَّقت لها في سعادة...

- تسوق... ستذهب للتسوق..

ثم ستكافئ نفسها بكأس آيس كريم كبير..

ارتدت ملابسها وتلك الفراشة المتفتحة داخلها تطير حولها سابحة في ضوء الشمس....

تركت شعرها حُرًّا على كتفيها بعد أن ساوته...

تناولت مفاتيحها وخرجت...

ظلت تتجول بين المحلات ولم تتجنب كالعادة النظر إلى نفسها في الواجهات...

كانت راضية تمامًا على نحو أعطاها دفعة ثقة عالية...

أعجبتها قطعة ملابس .. فدخلت إلى المحل الخالي من الزبائن ووقفت تقلب بين أرففه قليلاً ..

لم تلبث أن وجدت فجأة فتاة تقف خلفها مرتدية زي المحل...

ثم قالت لها بلهجة مفتعلة الرقة:

- احم.... مم.. للأسف كل المقاسات هنا صغيرة... محلنا الآخر توجد فيه كل المقاسات.

انطفأت فراشتها قليلاً وانخفضت أجنحتها في خجل من تعليق الفتاة على حجمها الذي ورثته عن أبيها...

أرادت أن تكيل لتلك السخيفة بضع لكمات، ولكن كانت فراشتها لا زالت تحلق، فارتأت أن تتجاهلها حفاظا على مزاجها الرائق.

ظَّلت في المحل بضع الوقت معاندة...

ثم خرجت للخارج...

أعاد لها استنشاق الهواء بعضًا من حيويتها وابتسامتها الجميلة...

ثم أسرعت الخُطى قليلاً مبتعدة وهي تري شابين قادمين نحوها وأحدهما يغمز بعينه معاكسًا جمالها..

خبأت ابتسامتها التي سعدت رغمًا عنها بمعاكسته...

ثم رأت صديقه يضحك وتناهى إلى مسامعها:

- ودي هتعاكسها من أنهي اتجاه ؟!!

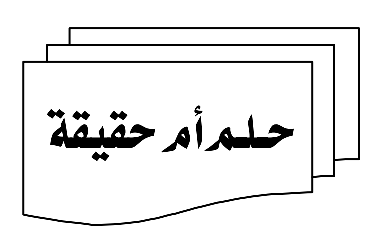
توقفت أجنحة فراشتها عن التحليق وهوت إلى الأرض ميتة...

نظرت إلى الأرض في أسيٍ..

وفي سخرية مريرة فكَّرت...

ربما لستُ فراشة حقًا ...

لا توجد فراشة في حجمي !.



وقفت في الشرفة وسكون الليل يلف المكان والقمر اكتمل بدرًا مرسلاً ضوءًا فضيًا خلابًا انعكس على ملامح وجهها الرقيقة القلقة...

أخذت عيناها الصافيتان تجوبان الشارع ذهابًا وإيابًا، وخلف صفائهما ترقُّب الخائف وقلق المنتظر...

ثم نظرت للسماء في رجاء وكأنما تتمني لو مرَّت طائرته الآن معلنة عودته...

لا ريب سينظر لبيتهما في حنين...

ليته يعلم أنها ها هنا الآن... تتطلع لعودته بكل ما في نفسها من اشتياق جارف...

تنهيدة حارة من أعماقها ألهبت شفتيها وحملت معها بعضًا من أسرار ألم الخوف والوحدة ولهيبهما....

انقبضت أصابعها برفق وكأنما تحتضن كفها المتلهف، المشتاق إلى لمسة يده وضغطة أصابعه القوية الرفيقة...

تنهيدة أخرى أقوى انتزعت بها نفسها إلى الداخل تاركة مكانها الذي تقف به منذ ساعات...

- لن يأتي الليلة ...

قالتها في همس خفيض وهي تعلم ذلك علم اليقين، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الانتظار.

لم تحملها قدماها إلى أبعد من أريكة قريبة من الشرفة، جلست عليها في وهن... وضعت يدها على قلبها وأخذت تمسح عليه في حنان... كأنها تحاول أن تُسكّن ألم الشوق الذي يئن بين الضلوع، رفعت قدميها عن الأرض واستلقت متكورة على الأريكة كطفلة صغيرة تائهة وحدها في عالم كبير.

لم تدرِ كم مرَّ عليها من الوقت وهي على هذه الحال، لكن خُيِّل إليها أنها سمعت تكة المفتاح... لم تفتح عينيها وكأنها تتقي ألم خيبة أملها مما يصوره الخيال...

هنيهة... ثم شعرت بأصابع تتخلل خصلات شعرها في رقة، وأنفاس حارة قريبة من وجهها...

فتحت عينيها ببطء ونظرت من بين أهدابها متطلعة في فضول أقرب إلى فضول الأطفال...

أشرقت ابتسامته أمام عينيها، فارتفع حاجباها في تأثر.. وبصوت مبحوح من الانفعال أرادت أن تقول كل كلمات الحب واللهفة...

تسارعت الكلمات وتزاحمت الحروف وذابت على طرف شفتيها، فلم يخرج منها سوى تنهيدة حارة حملت كل ما يعتمل بصدرها من مشاعر...

- أوحشتِني.

همس بها في أذنها برقة...

لمعت بالدمع عيناها حين مسَّ صوته شغاف قلبها وتسلل بين حناياها كأنه قطرات ندى رقيقة تُهدئ وتُلطِف من لهفة ولهيب الاشتياق.

رفع ذراعها برفق ولفَّه حول عنقه.. ضمها بحنو إليه ورفعها من على الأريكة حاملاً إياها على ذراعيه...

لا زالت غير مصدقة وغير قادرة على استيعاب ما يحدث... آثرت أن تستكين إلى أن ما يحدث هو حلم صاغته لهفتها وأحياه اشتياقها، وكأنما خافت أن تستعيد تركيزها فتعود إلى واقع لا وجود له فيه.

على الرغم من ذلك لم تستطع أن تمنع يدها التي ارتفعت تتحسس وجهه في حنان وتطمئن على كل ثنية من ثنيات ملامحه وكل تفصيلة صغيرة فيه...

جاوبها هو بابتسامة شعرت فيها بتجعيدات زوايا فمه تحت أصابعها... همس أنفاسه على باطن كفها....

- أحبك..

كأن الكلمة تذوب على شفتيه كقطعة سكر...

ظلَّ واقفًا أمام السرير لحظات ضانًا بها عليه وهو يعلم ألا راحة لها إلا بين ذراعيه، ثم أنزلها برفق وقبضتها الصغيرة متشبثة به تأبى عليه الابتعاد... استلقى بجانبها واحتضنها بقوة وحنان..

واسترخت هي تمامًا على صدره...

سكينته وأمان قربه احتوتها..

حنو ضمته..

عطره ورائحة أنفاسه...

تسلل النوم إليها قليلاً قليلاً حتى استولى عليها وغابت عن العالم تمامًا.

بعد وقت لا تدري طوله أو قصره... فتحت عينيها ببطء وأشعة الشمس المتسللة من خلف الستار أشاعت ضوءًا خفيفًا في الحجرة، نظرت بجانبها فلم تجده...

تذكرت طيفًا مما حدث ولم تستطع أن تحدد أكان حلمًا أو حقيقة..

ولم ترد أن تحدد أهو حلم أم حقيقة...

أغلقت عينيها على صورته.. وصدى صوته يتردد في أذنها...

ضمت نفسها إليها لتحتفظ بدفء مشاعرها حبيسة صدرها فلا تهرب...

ذهب الألم واختفى...

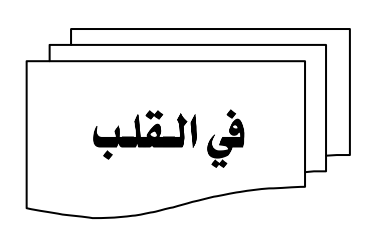
هو ليس بعيدًا عنها..

ساكن في كل ذرة من كيانها..

متسلل مع أنفاسها...

متناغم مع خفقات قلبها...

هو ليس بعيدًا عنها.. أبدًا.



جلستْ على طاولة صغيرة في ركن قاعة الاستقبال في فندق شهير، وأخذت تكتب في كراسة صغيرة في يدها عن حفل الزفاف الذي حضرته منذ قليل ... كلمتين عن الحفل الرائع، فستان العروسة الوهمي، ابتسامتها الساحرة، فرحة المدعوين ... وستلحق بعدد بعد غد من مجلة "أخبار المجتمع" التي تعمل بها.

رفعت رأسها قليلاً عما تكتب متطلعة إلى العروسين وهما يستقلان المصعد كأنها تحاول أن تستوحي منهما كلمات تنهي بها ما تكتب ... ابتسمت ابتسامة لطيفة وهي تحاول أن تتخيل شعورهما الآن وسعادتهما وهي ترقب وجه العروس الهادئ الرقيق.

قطع عليها أفكارها صوت غناءٍ عالٍ ورأت شابًا يتمايل راقصًا على وقع أغنية صاخبة يغنيها بصوت مزعج غارقًا في الضحك. أسرع إليه أمن المكان طالبًا منه الصمت أو الخروج.. فلم يرد عليه وأكمل ضحكه الهستيري في فرحة صاخبة وكأنه لا يهتم

سوى بما يشعر به من مشاعر عارمة في هذه اللحظة... ولا شيء غير ذلك.

بدأ رجل الأمن يجذبه من يده وهو لا يستطيع أن يقاوم من شدة ضحكه، ثم أخذ يحاول السيطرة على نفسه والتقاط أنفاسه مترجيًا رجل الأمن الصبر عليه.. ثم نظر فجأة إليها وقد سكتت ضحكاته ثم سألها في أدب غريب لا يعكس تصرفه منذ لحظة...

- أنتِ الصحفية التي تكتب عن الزفاف، أليس كذلك ؟

أومأت برأسها إيجابًا... حاول أن يجلس على الكرسي الموجود أمامها فمنعه اعتراض رجل الأمن، فالتفت إليها في رجاءٍ حار وقال بتوسل :

- هلا تأتين معي للخارج.. أرجوكِ.. أرجوكِ.

اشتعل فضولها وأشفقت على توسله فقامت وخرجت معه إلى الحديقة... جلسا على طاولة في جانبها، فقال لها :

- أتسمحين لي أن أمليكِ ما ستكتبين عن العروس؟..

وقبل أن ترد أخذ يقول :

- كانت العروس ترفل في ثوب زفافها وكأنها ملاك جميل... أرجوكِ اكتبي...

ظلت ساهمة لحظة... ثم أخذت تكتب وهو يكمل...

- ملاك جميل اكتسى بثوبٍ بشريٍ؛ لأن الملائكة لا يعيشون بيننا بصورتهم... ملامح رقيقة ذات تناسق بديع وروح نقيه أطلت

من عينيها الساحرتين... ابتسامتها الخلابة التي تأسر الألباب.. نعومة حركاتها وانسيابيتها أسرت الحضور.. فجمالها وروحها العذبة أشاعا جوًّا غريبًا من السحر في المكان حتى ليحسب الرائي أن كل ما مسَّت يداها أو وقعت عليه عيناها يكاد ينطق مفتتنًا بها...

- أنت تحبها ؟

قالتها فجأة قبل أن تستطيع أن توقفها، وندمت حين جمدت نظراته في ألم... ثم بلا مقدمات انفجر في نوبة ضحك هستيرية لنحو دقيقة حتى دمعت عيناه وقال بصوت لاهث الأنفاس:

- أحبها !!!

أفكرتِ يومًا أنك تحببين يدكِ أو أصابعك.. عينيك أو ابتسامتك.. عقلك.. قلبك..

وبصوت أكثر تهدجًا:

- روحكِ.. نفسكِ..

أنا.. لا أحبها.. أنا لا أدري ما الحب ولا أعرف العشق.. لكني أعرفها هي.. أعرفها وكأنها أنا أو كأني هي.. لا أعرف الحب ولا الجمال.. لا السعادة ولا التفاؤل.. لا الضحك ولا الأمل.. لا الحزن أو القسوة أو الألم... لا أعرف إلا هي.. هي كل شيء .. هي هي... هي أنا..

بدا كطفل حائر يحاول تعلم الكلمات ليعبِّر عن نفسه وكأنه يبحث عن معني لا وجود له في قواميس اللغات.

- لماذا لم تتزوجا ؟..

قالتها بصوت خافت دون أن تدري أنها بهمسها أشعلت نارًا في صدره وفجَّرت براكين الألم التي كان يحاول مداراتها بضحكاته التي انطلقت في جنون وكلماته تكاد تنقلب صرخات معذبة...

- لم أتزوجها لأني كما قالوا أحبها.. أحبها.. كيف تحبها قبل ان تتزوجها.. بل كيف تتجرأ وتعرفها...

أبعدوها عني وأبعدوني عنها لأني ارتكبت الخطيئة الكبري والفُجر الاعظم.. أحببتها.. ويلك من فاسق زنديق.. بنات الناس لا يعرفن ولا يجب أن يعرفن هذا الكلام الفارغ وانحراف الأخلاق. أنت أفسدت أخلاقها.. لن تتزوجها.. بحُبك لها حُرمت عليك حرمة مؤبدة.. بخطيئتك لن تمسها وستكون لغيرك.

أصبح يدور الآن في المكان كالمجنون...

- حبسوها.. ضربوها.. أقفلوا عليها الأبواب، سدوا النوافذ، وأنا أجن في الخارج.. أكاد أموت وأنا أتخيل دموعها... قلبي يتفجر فيه ألمها وأوصالي تتقطع من أوجاعها ... وقفتْ الدنيا في وجهي وحالت بيننا...

سحقًا للمجتمع والتقاليد والناس الذين أخذوا روحي مني.

انهار على الأرض، دموعه كالحمم، وقد أخفى وجهه بين كفيه كأنما يهرب من صورة بشعة في خياله .. وبصوت لاهث من الانفعال:

- أخذوا روحي مني .. أخذوا روحي مني .. أخذوها لغيري .. غيري الآن مع حبيبتي ... حبيبتي .. ينظر إلى جمالها .. يتأمل عينيها .. أنفها الدقيق .. وجنتيها .. شفتيها.

شعرت بأنفاسه تكاد تنقطع وهو يكمل...

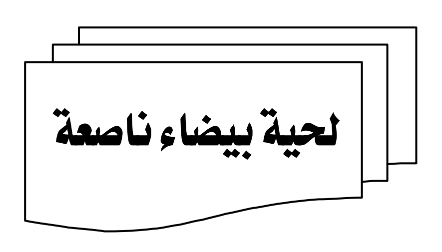
- يتلمس بيده خصلات شعرها ويمد يده إليها ويضمها إلى صدره .. هي وحدها الآن .. وحدها .. من دوني ... ليس هناك من يدفع عنها يده أو يحول بينها وبينه .. لا أحد سواي يسمع صرخات قلبها المعذب المستغيث .. لا أحد يرى سوى قسمات وجهها الهادئة .. أنا وحدي أشعر بها .. بألمها وشقائها وعذابها .. أنا أموت في كل لحظة ألف مرة .. ألف مرة.

أخذ يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة ثم وقع على الأرض، نهضت فزعة إليه ثم أسرعت تستنجد برجل الأمن في الداخل ... وضعت يدها على فمها لتمنع نفسها من الصراخ ... عيناها تبكي دون أن تدري وهي تراهم يحملونه مسرعين إلى حجرة صغيرة وطبيب الفندق يدخل وراءهم .. كاد قلبها يتوقف .. حتى خرج إليها بعد قليل وقال:

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون... يبدو أنه كان مصابًا بالقلب وانفعل انفعالاً شديدًا لم يتحمله قلبه... توفي.

اتسعت عيناها في ذهول ووجدت نفسها تتمتم في همس متقطع :

- بل كان مصابًا في القلب... بل كان مصابًا.. في القلب.



هادئا... خلي البال.. مشى واضعًا يديه في جيبه..

شعر باهتزاز هاتفه المحمول، ألقى نظرة عليه فوجده صديقه الذي ينتظر قدومه...

كان أمامه شارع واحد ويصل إلى مكان تلك الندوة الدينية الذي دعاه إليها..

آثر ألا يرد عليه... يكفيه أن استجاب لدعوته وأتى وهو الذي كان راغبًا بيوم كسول يستلقي فيه دون حراك...

عشر دقائق وكان قد وصل عنده، فلاقاه صديقه بإقبال مرحب..

لم يكلف نفسه اخراج يديه من جيبه...

لا يدري... لديه اليوم مزاج تأملي كسول بامتياز..

ردَّ على تحيته بابتسامة ثم استمع له وهو يخبره أنه سيغيب عشر دقائق فقط ليحضر شيئًا ثم سيعود ليدخلا سويًا ...

أومأ له برأسه أنه سينتظره ها هنا...

استند إلى سيارة مركونة بجانب الرصيف وأخذ يراقب تلك القطة البنية الصغيرة وهي تموء...

جائعة ربما...

بحذر القطط اقتربت من عامل نظافة جالس على الرصيف المقابل يقضم من سندويتش في يده..

نظرت إليه نظرة استعطاف...

فابتسم لها...

قاطع مقدم صديقه تأمله لذلك المشهد...

ولكن لمح بطرف عينه قبل أن يدخل المبنى؛ ذلك العامل يقتطع جزءًا من طعامه ويعطيه للقطة الصغيرة وهو يدعك فروها بلطف...

انفرجت شفتاه عن ابتسامة تحية للموقف الانساني الذي عدَّه نادرة من نوادر الزمن...

دخل إلى القاعة التي بها الندوة..

جلس في صفٍ أخيرٍ مستمعًا للشيخ الوقور ذي اللحية البيضاء الناصعة.. متحدثًا عن الرحمة والتراحم.. ورقي أن يكون تبسمك لأخيك صدقة...

كان يستمع بنصف أذن...

وهو يفكر ساخرًا..

لعله أصبح مصابًا بمرض لحيو فوبيا..

فوبيا تصيب من يعتقد أن عميقي الإيمان حقًا لا يحتاجون إلى اللحي البيضاء الناصعة.. تكفيهم قلوبهم البيضاء النقية..

انتهى الشيخ من محاضرته... ثم خرج من القاعة بعد السلام على محبيه واحدًا واحدًا..

بإجابات دبلوماسية قصيرة كان يرد على صديقه الذي تواترت أسئلته عن رأيه في الشيخ الجليل وهما يخرجان من المبنى...

طرق مسامعه لفظٌ عنيفٌ... قاسٍ...

فنظر متجهمًا..

وجد اللحية البيضاء الناصعة فوقها فمٌّ يقطر سمًّا على العامل الذي رآه منذ قليل... مؤنبًا إياه على عربة النظافة المتسخة التي ارتكنت على سيارته خادشة سطحها...

أطرق للأرض في أسى متذكرا قول " د/ مصطفى محمود " : (إذا أردت أن تفهم إنسانًا فانظر فعله في لحظة اختيار حر... وحينئذٍ سوف تفاجأ تمامًا.. فقد ترى القديس يزني، وقد ترى العاهرة تصلي، وقد ترى الطبيب يشرب السم، وقد تُفاجأ بصديقك يطعنك، وبعدوك ينقذك، وقد ترى الخادم سيدًا في أفعاله والسيد أحقر من أحقر خادم في أعماله، وقد ترى ملوكًا يرتشون وصعاليك يتصدقون).

غمغم في حزن:

- الله يرحمك يا دكتور مصطفى.



راقب الورقة المعلقة على الحائط بإزدراء، ثم أشاح بوجهه عن كلماتها التي تعلن فصله عامًا كاملاً من دراسته.. لم يكن يقلل من إحساسه بالقهر إلا ابتسامات زملائه المشجعة الذين انقطعوا بعد حادثته عن حضور المحاضرات احتجاجًا على فصله.

راقب أحد العمال يلهث وراء دكتور حاملاً حقيبته، فتذكر تلك المحاضرة المشئومة حين دخل دكتور المادة وراءه عامل مثل هذا يحمل له حقيبته، كم يكره هذه الحركة الاستعلائية وما فيها من طبقية في التعامل مع العاملين.

كانت كل التفاصيل حاضرة في ذهنه بصورة زادت من غيظ قلبه، تذكر كيف جلس الدكتور على المكتب، فكَّ ساعته من حول معصمه وفردها أمامه ليراقبها بينما يلقي محاضرته وكأنما يستعجل مرور الوقت...

أخرج الكتاب من حقيبته...

سأل أحد الجالسين في الصف الأول عن الجزء الذي توقف عنده آخر مرة ثم بدأ يقرأ بصوت رتيب ... ميت ... مبلل بصوت ابتلاعه لريقه بينما الميكروفون أمام فمه مباشرة.

ظل يصغي لنحو ساعة مقاومًا النعاس حتى قال الدكتور رأيًا غير منطقي تمامًا في مسألة ما، أعاده ذلك إلى تركيزه وهو يسترجع الكلمات في ذهنه، فتأكد أنه لا يمكن أن يستقيم الرأي هكذا.

رفع يده ليقول رأيه، فألقى عليه الدكتور نظرة من خلف زجاج نظارته السميك ثم تجاهله بإيماءة من رأسه مكملاً القراءة....

شعر بالاستفزاز من هذه الحركة فقال بصوتٍ عالٍ :

- لو سمحت يا دكتور

انتبه الطلبة الذين كانوا قد أخذتهم إغفاءة قصيرة، فاضطر للتوقف عن القراءة وبصوت نافذ الصبر قال:

- ها...

أخذ يشرح رأيه ويفند ما قيل من حجج، فانتظر الدكتور حتى انتهى من كلامه ثم قال:

- إن هذا هو الرأي الغالب وما استقر عليه الفقه وكبار الفقهاء... ثم حاول أن يعود للقراءة مرة أخرى.

فقاطعه قبل أن يبدأ:

- لكن حضرتك لم ترد على ما فكرت فيه من حجج، هذا الرأي لا يستقيم!

تجاهله مرة أخرى فزاده ذلك اصرارًا فقال بصوتٍ أعلى :

- دكتور لو سمحت...

فجأة، وجد الدكتور يرد عليه بمنتهي الحدة ماسحًا بكرامته الأرض عن قلة أدبه وتفاهته وعدم احترامه وعدم التزامه بآداب المحاضرة، وأنه لا يستحق أن يكون طالبًا، وأنه لا يريد أن يسمع صوته مجددًا.

ظلَّ لحظة مبهوتًا من المفاجأة ثم هبَّ واقفًا وقد احمَّر وجهه غضبًا وقال بحدة:

- هذا حقي أن تسمعني.

ردَّ بعصبية أكبر:

- أنا لست مجبرًا أن أسمع أي شيء، اتفضل بره ولا أريد أن أرَ وجهك في محاضرتي مجددًا.

خرج بخطوات عصبية وبمنتهي الغيظ صفق الباب خلفه.

في الصباح التالي، كان مكتب كل دكتور في الكلية يحمل ورقة تحمل نفس الكلمات...

(أنت لست مجبرًا أن تسمعني، وأنا أيضًا لست مجبرا أن أسمعك بإمكانك أن تملأ الدنيا حديثًا وكتابة، شرحًا وكلامًا مستفيضًا...

وبإمكاني بسهولة أن أصم أذني عما تقوله، أن أغمض عيني وأخطف قيلولة صغيرة فيم تنهي كلامك، أو أستكمل حديثًا هامسًا بينما تشرح رأيك..

مهما كان كلامك مهمًا، حتى لو كانت الفكرة التي تريد توصيلها يتوقف عليها مصير البشرية...

بيدي دائمًا أن أختار ألا أسمعك..

إن المحاضر الذي يكتفي بأن يجلس إلى مكتبه ويفتح كتابًا بين يديه أو بعض الأوراق ليقرأ منها بصوت رتيب خالٍ من الحياة سطور ميتة يلقيها على مسامعنا، إنما يعطينا فقط عذرًا جيدًا لكي نتهامس من وراءه، وربما نتقاذف بعض الطائرات الورقية ملئًا للفراغ الذي يتركه في نفوسنا حين يتحدث.

وهو يعلم جيدًا أن بإمكاننا أن نقرأ.. وحدنا... متكئين على أسرتنا في حجرة جميلة.. مكيف يعمل على أقصاه وكوب شاي تفوح منه رائحة النعناع لهو بالتأكيد مشجع على الجلوس في البيت أكثر بكثير من أن نجلس أمامه ليقرأ لنا كأطفال الروضة!.

مهما كان العلم الذي يحمله المحاضر قيِّمًا، فإن عليه أن يدرك جيدًا أنه يجب أن يحرص على أن يكون علمه جذابًا بما يكفي لكي يجعلني أستمع إليه وأفضِّله على غيره من وسائل المعرفة التي أصبحت في متناول الجميع اليوم.

يجب أن يدرك المحاضر أنه ليس مصدر المعلومة الوحيد.

فالعيب كل العيب على من يلقي لا على من يتلقى، فمن يلقي يحمل مهمة مقدسة عليه أن يسعى لها بكل جهده ولو اقتضى الأمر أن يتحول بهلوانًا أو ساحرًا؛ إذا كان ذلك سيؤدي لترسيخ الفكرة الناضجة والعلم الحقيقي في أذهان من يُلقي عليهم.

إن على المحاضر أن يدرك أننا دائمًا نملك اختيار ألا نسمع وأن مهمته الأساسية...

أن يجعلنا نستمع لما لديه).

عندما تذكر كلماته هذه لانت ملامحه بعض الشيء، وشفى بعضًا من غيظه...

ألقى نظرة أخيرة على إعلان الفصل، ثم أدار ظهره له وانصرف....

انصرف كأنما يلقي خلف ظهره كل ميراث القهر والظلم وكبت الرأي.



وقفت أمام المرآة.. وبقلم كحل أسود رفيع مرت على عينيها الواسعتين فزادتهما جمالاً واستدارة...

ثم تناولت إصبع روج بلون زهري جميل مسَّت به شفتيها الصغيرتين المنمقتين...

أحكمت ربط المريلة البيضاء الناعمة حول وسطها، ثم ألقت على نفسها نظرة أخيرة قبل أن تخطو إلى المطبخ...

أخرجت الخضروات من الثلاجة، ثم وقفت تغسلهم بعناية تحت مياه الحنفية الجارية...

"نظرة من فوق لتحت"

رمقتها بها جارتها من الشباك المقابل كأنما تعلن بها تعجبها من زينتها التي لا تتناسب مع جو الطبخ...

- بلهاء

همست بها لنفسها...

- لعلها الآن تفكر أني واحدة من أولئك الحمقاوات اللاتي يتفاخرن بعدم قدرتهن على صنع كوب شاي؛ وكأن ذلك دليل أنوثتهن الطاغية ودلالهن...

مسحت بيدها على قشرة الطماطم الناعمة وكأنما تنقل لها بعضًا من دفء يدها، ثم أمسكت السكين وبدأت بتقطيعها قطع صغيرة وهي تفكِّر...

- لا أدري حقًا كيف لواحدة منهن أن تدَّعي الأنوثة وهي تأنف من العناية بحبيبها والاهتمام به...

كيف تسمح لطعام أن تعده غير يدها.. أن تحتضنه غير راحتيها.. أو تختلط به أنفاس غير أنفاسها..

وهي عالمة أن كل لقمة منه ستتشبع بأنفاسه... ستمر بجوفه.. وتسري في دمائه.. ستختلط بعظمه ولحمه وتضخ الدم إلى قلبه الذي تحبه..

وضعت قطع الطماطم الصغيرة في طبق ثم تناولت فلفلة خضراء ممتلئة، استنشقتها أولاً ثم شقت قلبها ببطء وبدأت في تقطيعها بتساوٍ...

- كيف تكون أنثى حقيقية دون أن يكون كل ما يصدر منها من أفعال مُشبَّعًا بالحب .. مُعطَّرًا برائحتها .. مُحاطًا بعنايتها واهتمامها بأدق التفاصيل وأصغرها...

إن الحب في جوهره محبة عميقة ... صافية ... معطرة بدفء الأمومة الفطرية..

كيف لها أن تجد الرضى والسعادة دون أن تكون راحته قرة عينها...

تناولت المقلاة ومسحت سطحها بقطرات زيت رقيق ثم وضعتها على النار...

ألقت فيها قطع الدجاج أولاً...

تركته قليلاً ثم بدأت تضيف الخضروات لونًا بعد الآخر...

- إن الأنثى الحقيقية تترك لمساتها الفياضة بالرفق والحنان في كل مكان تطوف به... و الدفء والعناية التي تحوط به رجلها سيظل أثره باقيًا دائمًا في نفسه...

تذوقت بعضًا من الطعام على طرف ملعقة وهي تنقل إليه بعضًا من أنفاسها وهي تهمس...

- كم أحبك...

ربما لن أستطيع أن أظل دائمًا على زينتي وجمالي في كل مرة أخطو فيها إلى المطبخ...

ولكني أبدًا لن أفقد حبي واعتنائي بك.



عاقدًا حاجبيه.. غاضبًا..

بلونه الأسمر وطوله الفارع وعروقه النابضة في معصميه من العصبية..

لوَّح في وجهها بإصبعه مهددًا..

- أنتِ لم تعودي تحبينني مثلما كنتِ.

بارتياع في عينيها حاولت أن تنفي..

فأسكتها بإشارته..

- أنتِ لا تهتمين بي.. لم أعد أعني لكِ شيئًا.

حاولتْ أن تتكلم.. ولكن أمام طوفان اجتياحه لم تستطع وهو يكمل..

- أنا أحبكِ.. وأنتِ..

أنتِ.. لا تحتملينني.. لا تحتوين قلقي وضغوط نفسي..

بكل العجب في نفسها تمتمت:

- وماذا عن الآن ؟!

سمعها فارتفع صوته أكثر..

- الآن.. لا.. لا.. لا تتكلمي عن الآن..

أنا بنفسي فوق ما يستطيع بشر احتماله..

أنا تعبت من هذه الحياة..

أتحاسبينني حتى على صرخاتي هذه أنفث بها عن نفسي..

بصوت حزين ضعيف:

- لا يا حبيبي لا أحاسبك.. ولكن اهدأ قليلاً.

- لن أهدأ.. لن أهدأ.. أنا انفعل مثلما يحلو لي.. وقتما يحلو لي..

بللت الدموع مقلتيها وانسلت قطرة على وجنتها..

فحدق فيها بنظرة وجلة مترقبة..

بصوت منخفض قال..

- لم تبكين الآن.. ؟

لم ترد..

دمعة أخرى سالت عليها..

بصوت أكثر همسًا..

- لا تبكي.. دموعك تقتلني..

أنا لم أقصد.. أنا منفعل.. غاضب من كل شيء في الحياة.

اقترب منها أكثر، لف ذراعيه حولها وهي ساكنة..

- ليس لي سواك.. أنفث فيه عن كربي..

لا تقتليني باخفاقي أن أبقي ابتسامتك..

وجرمي أن أبكيتك..

احتضنته.. فاختبأ برأسه في حضنها هامسًا..

- أنا طفلك الأخرق.. سامحيني أن أبكيتك.

ابتسمت ابتسامة صغيرة..

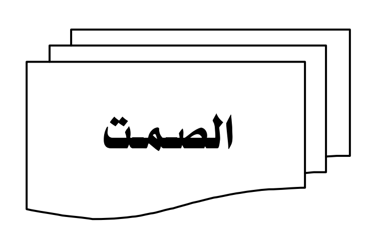
- تعرف أني مسامحة على كل شيء .. حدث وسيحدث..

- أعرف.

- وتعرف أنك مجنون أيضًا ؟

- أعرف..

مجنون.. بـكِ.



أخذت تذهب وتجيء في الحجرة يداها مشبّكتان خلف ظهرها...
تقطيبة حادة ارتسمت على وجهها دلت على عميق التفكير...
بينما جلس هو على كرسي هزاز في طرف الحجرة يرقبها وفي عينيه نظرة تحمل بعض التساؤل وكثير من الغموض وابتسامة صغيرة على ركن شفتيه تظهر وتختفي كأنه يعرف ما يدور برأسها... لم ينطق بحرف، وظل يرقبها صامتًا وعينيه تتبعانها في ذهابها وإيابها مستمتعًا بتلك اللذة الخفية في مراقبة كل حركة من حركاتها...
إنه يحب الطريقة التي تمس بها الأرض مسًا فهي لا تمشي وإنما تبدو كأنها تطفو كسحابة رقيقة تحركها نسمات الهواء، يعشق تلك التقطيبة على وجهها تمامًا كالأطفال حين يتظاهرون بالجد، وهذه الرعشة الخفيفة في طرف إصبعها حين تتوتر...
- أأنت واثق من حبك ؟؟
قالتها فجأة بطريقة حادة ملتفتة إليه وفي عينيها نظرة جادة...

لم يستطع أن يمنع نفسه وانطلقت منه ضحكة عالية رددت أنحاء الحجرة صداها وهو يقول جذلاً :

- مازلتِ كعهدي بكِ طفلة.

ظهر الغضب في عينيها.. أدارت ظهرها له هامة بالانصراف، فأمسك يدها بسرعة قبل أن تذهب قائلاً بصوتٍ حنون:

- انتظري.

أدارت وجهها إليه فرمقها بنظرة عاشقة، عذبة، نقية، تحمل كل معاني التقديس والحب...

نظرة اخترقتها حتى الأعماق.. ومن حنوها طافت بمعالم وجهها تمسح التقطيبة وتُسكن السلام في ثنايا ملامحها...

حاولت عبثًا أن تحتفظ ولو بتقطيبة صغيرة تدل على غضبها، لكن تحولت إلى محاولة بلهاء لمنع ابتسامة من الظهور على شفتيها خاصة مع الحمرة القانية التي صبغت وجنتيها برقة زادتها سحرًا وفتنة...

شعرت أنها تكاد تذوب من فرط الحرارة التي استشعرتها في كل خلية من خلاياها...

وفي محاولة يائسة للحفاظ على قناع الجد سحبت يدها من يده وأبعدت عينيها عنه محاولة الهروب بالنظر إلى أي شيء في الحجرة سواه....

اتسعت ابتسامته وقام من مكانه، ثم وقف قبالتها وقال بعد لحظة صمت:

- حُبِّي.. أي كلمة هذه التي تستخدمينها ؟!!

حرفان ! ..

أو تحسبين أن ما يموج بين جنبات صدري تعبر عنه حروف أو كلمات ! .

ما زلتِ كعهدي بكِ طفلة تعتقدين في الكلمات، وما زلتُ لا أدري كيف أغرس إيمان الصمت في صدرك...

أتصدقينني إن أخبرتك أنكِ الأمان الساكن في صدري...

أنكِ رعشة النبضات في عروقي...

أنكِ الهمس الذي يسري مع كل تنهيدة من أعماقي..

أنك الحنان الذي يطل من عيني ، وضي الابتسامة على شفتي...

أتصدقينني إن أخبرتك أنني إن ضمَّتْ كفاي قطرات ماء؛ رأيتك تتسللين من بين أصابعي...

وأنكِ تتصاعدين مع بخار الشاي الساخن في الصباح، وفي رائحة النعناع العطرة...

أتصدقين أني أحتضنك كل صباح مع ربطة عنقي وأضمك إليَّ حين ألبس سترتي ... وحين يغشي نور الشمس بصري أحسبها تلك إشراقة ابتسامتك... وأظل أنخدع... كل صباح.

أتصدقين أنكِ عطرة كرائحة زهر البرتقال في أوائل الشتاء...
شهية كفاكهة استدارت مكللة بندي الصباح...
أتصدقين أنكِ ساحرة كليلة صيفية جميلة تعطر نسيمها برائحة الفل والياسمين...
رائعة كنورٍ فضيٍ خلاب انبعث من بدرٍ استدار واكتمل في سواد السماء المرصعة بالنجوم.....
أتصدقين أني ما استطعت أن أصف لكِ ذرة من فيضان المشاعر في صدري، وعميق احساسي بكِ يا ضياء عيني...
وأني...
أعلن كفري بالصمت إن أنتِ أحببتِ الكلمات.

ساد سكون تام بينهما لا يقطعه إلا حفيف أنفاس خافت اختلط بدقات قلبيهما المرتفعة...
انفرج فمها انفراجة خفيفة ثم أغلقته، فقال بحنوٍ دافئ:
- ماذا أردتِ أن تقولي ؟

لم تنطق، وظلت تطوف بوجهه للحظات بدت وكأنها سنوات، ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة خجولة وهمست بصوتٍ خفيض:
- الآن آمنت بالصمت.



أمسكتُ كتابًا أدري أنه لامس راحتيك..

التقط بعضًا من عطرك..

آنستْ ورقاته.. أنفاسك..

أقرِّب كلماته مني وأبقيها على اختلاط بأنفاسي..

وبقايا أنفاسك..

أقلب صفحاته بدفء أناملي..

وأتمني داخلي..

لو كنت لحظة قرأته تفكرت بأناملي..

باحتياجك لدفئي..

أنفصل عن العالم حولي..

وأنغمس فيك..

في الكتاب.. أقصد..

في كل كلمة أعرف أنها تصفني وتصفك..

تصف كل ما لم يحدث بيننا..

ونرجوه..

كل رجفة شوق..

واندفاعة عشق..

ولذة لقاء..

تحيا في كلمات هي أقرب ما تكون.. للحياة..

أتوقف عند كل فاصلة ونقطة أعلم أن عينيك مرَّت بهما..

ما أجمل عينيك..

ما أعمق عينيك..

أستعيد قراءة المقاطع التي أحببتها..

أعلم أنكَ أحببتها من فرط وصفها لجنونك، وعشقك، واحتياجك، واجتياحك...

أغمض عيني عند كل حنو جارف.. مكتسح..

من حضن.. أحسبه ليس إلا حضنك..

ثم أخبئ وجهي كالبطلة التي أحسبها ليست سوى أنا..

في صدرك..

كل الأبطال أنت..

وكل أنثى تحتل البطل.. وتسكنه..

هي أنا.

كل القصص قصتنا..

نفس عميق داخلي..

أسيطر به قليلاً .. فقط قليلاً ..

على احتلالك..

أكاد أثني طرف الورقة عند الصفحة التي توقفت فيها..

فأذكر كم تكره ذلك..

فأعدل وألتقط ورقة أطويها داخله..

أطويها على مشاعري..

و أنا أعلم..

أنك ستحب أني تذكرتك..

وتجنبتُ ما تكره..

أغلق الكتاب ببطء..

وكأنني أسحب يدي من يدك على استحياء..

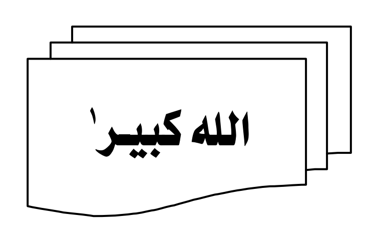
فأشعر بك..

بالكتاب..

يمتعض حزنًا لابتعادي..

فأعود أمسح على ظهره بحنان :

- سأعود إليك..



في ركن بعيد جلسا سويًا متقابلين بين الشوق والخوف..

حزْمُ عينيه أخافها بعض الشيء..

استعطاف من أهدابها ألان انعقاد حاجبيه قليلاً؛ وإن لم يثنه عن موقفه الجامد..

تهرب من عينيها واستجمع شتاته ثم تحدث عن الظروف والانتظار..

عن المجتمع عليه اللعنة.. والحالة الصعبة والاقتصاد الخرمان.. وما كان يجب أن يكون..

حدثته عن الآمال الوردية التي ستزيل الآلام.. وحلول سطحية ظنتها معجزة ما..

هزَّ رأسه في يأس وقاطعها قائلاً..

- قد نفترق..

صدمة غامت على وجهها واحمّر بياض عينيها بالدموع..

---

١ نصيحة صغيرة: لا تقرأ هذه القصة إلا وأنت تسمتع إلي أغنية فيروز "الله كبير"

أزاح عينيه وبصوت هادئ..

- لا تبكي..

كانت تدرك أنه لا يقول كلمة إلا وهو يعنيها..

ابتلعت دموعها وجاوبته..

- سأنتظر..

بنصف ابتسامة كسكين غير حادة تقطعها أشلاء..

- إلى متي ؟..

- لن أتركك..

لم يستطع أن يخفي حنان صوته المفعم بالشوق..

- أتحسبين أني أستطيع أن أتركك ؟.. وقتها لن يكون اختيارًا يا حبيبتي...

لم يكن رجل الكلمات العاطفية والأحلام الكبيرة..

كان رجل القطع والرأي الذي قُتل بحثًا.. كانت تعلم أنه يعني ذلك حقًا وأن ما يقوله بالتأكيد صحيح..

فراغ أجوف وثلج بارد أوقف نبضات قلبها قليلاً قليلا.. فانحنت..

أحنت رأسها لكي لا يري دموعها .. هي تعلم أنه قال لا تبكي وأكملها في نفسه.. فدموعك تحفر وجداني..

- ارفعي رأسك...

هزَّت رأسها رافضة.. مدَّ يده تحت ذقنها الصغير رافعا إياه..

بشفتيها احترقت كفه..

وبأنفاسها التهبت روحه...

رفع وجهها إليه...

مسح على شعرها بكفه الملتهب بها...

ثم قال على طريقة فيروز:

- ألم تقولي يومًا.. طالما الله موجود.. إيه في أمل

ابتسمت له..

- الله كبير..

▪ خاتمة

نظرتُ لك...

من خلف زجاج السيارة، وأنا واقفة بالخارج أرقب انفعالاتك وأنت تتبادل الأماكن...

بطرف عيني لمحتك تتسلل من "الناحية التانية" لتلقي نظرة بعدما أثرت فضولك...

ثم رأيت تعابير وجهك وأنت تتأمل من جلسوا مكانك...

لا تسرح كثيرًا ... فتركز طويلاً ... فيما شعروا به من جلسوا مكانك وأخيرًا عرفوا ما تشعر به...

أنت نسيت مهمتك الأساسية ؟!

ماذا شعرت أنت حين جلست في أماكنهم...؟

أليس الأمر أشبه بلعبة الكراسي الموسيقية...

دائرة تلف بنا جميعًا...

فالظالم فينا اليوم، هو المظلوم غدًا....

والمظلوم فينا الآن قد يكون هو الظالم من حيث لا يشعر...

كأنها دائرة مكتملة...

كلنا فيها ظالمون ومظلومون...

لكن ما يخلق فينا الانسانية...
ويجعلنا أكثر رحمة بأنفسنا وبالآخرين...
هو ادراكنا لهذه الدائرة...
إدراكنا وتقبلنا للآخر...
الجالس قبالتنا.. أو خلفنا...
أو مختبئ في الزاوية التي لا تطولها الكاميرا...

وخاتمة...
لكل من وجد في طريقه معاناة...
وأدرك...
أن الإدراك والإحساس بالآخرين ليس بالأمر السهل...
وأن الانسانية أصبحت أحيانًا بعضًا من الشقاء علينا أن نتعايش معه في هذا العالم القاسي...
أهدي هذه الكلمات التي كتبتها يومًا...
إليه وإلى نفسي...
وإلى روح "د/ مصطفي محمود" المفعمة كتاباته بكل الرحمة والإنسانية ...
والملهمة لأي باحث عن الحق...

(إن المعاناة هي نار النفوس الصادقة التي تزيدها عمقًا وصفاءً وشفافية .. تمامًا كحبات الرمل التي تذوب في نيران آلامها لتخرج لنا بلورات نقية تبهرنا بروعتها ونقائها...

إنها طريق التطهر من كل ما يعلق بنفوسنا ويلوث إنسانيتنا ويشوب رحمتنا بأنفسنا وبالآخرين..

برغم كل ما اعتقدته واعتنقته من مثل وقيم سامية ونبيلة .. حسبتها تلقائية بين البشر ولا خلاف..

الحق.. الصدق.. العدل.. الرحمة.. الإنسانية..

الآن أُفطم من طفولتي التي كانت تؤمن بذلك..

الآن.. هذه ليست الحقيقة ولا خلاف..

الحقيقة... أن هذه القيم ليست تلقائية..

ليست بانتظارنا في أول الطريق لكي تأخذ بأيدينا طالما حرصنا على صحبتها.. واستبقيناها يقظة فينا..

لكنها تقف بعيدة... بعيدة.. في نهاية الطريق الذي يجعلنا ندرك مع كل خطوة أنه لم يكتب لنا أن نصل إلى نهايته، ولكن أن نموت على الطريق...

وجعل الله لها المعاناة ملازمة...

آلية انتقاء طبيعية لأولئك فقط القادرين على تحمل مسئولية الحق والصدق والعدل والرحمة..

أولئك الذين سيستطيعون التحمل.. ويواصلون..

برغم عصف الحيرة.. وزلزلة الشك..

سعيًا لليقين الذي ليس في مثله يقين...

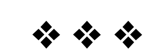
سيأخذ بأيديهم إليه..

ولذلك جعل الصبر يده التي ليس كمثلها شيء؛ تلطف ضيقهم وتمسح على صدورهم بالسكينة والرحمة...

تطمئنهم وتجزل لهم العطاء...

{ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ...

طوبى لمن صدق منا وصبر .



المؤلفة في سطور

- كاتبة وقاصة مصرية، من مواليد عام ١٩٩١م
- حاصلة على ليسانس حقوق، جامعة القاهرة، وتعمل حاليًا معيدة بالكلية.
- لها مدونة إلكترونية على شبكة الإنترنت تحت اسم (هندية)

http://www.hendiia.blogspot.com

- الإصدارات :

- من الناحية التانية : مجموعة قصصية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٣م

- البريد الإلكتروني: heindhanafi@hotmail.com

- صفحة الفيس بوك : http://www.facebook.com/Hendiiaa

الفهـرس



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net